رحلات في جنوب روسيا:

إقليما سمارا وأستراخان

مشاهدات وأحاديث عن المسلمين

محمد بن ناصر العبودي

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

ⓒ محمد بن ناصر العبودي ، ١٤٢٠هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبودي ، محمد بن ناصر
إقليما سمارا واسترا خان.- الرياض.

١٧٩ ص ، .. سم
ردمك : ٧-٣٢٨-٣٦-٩٩٦٠

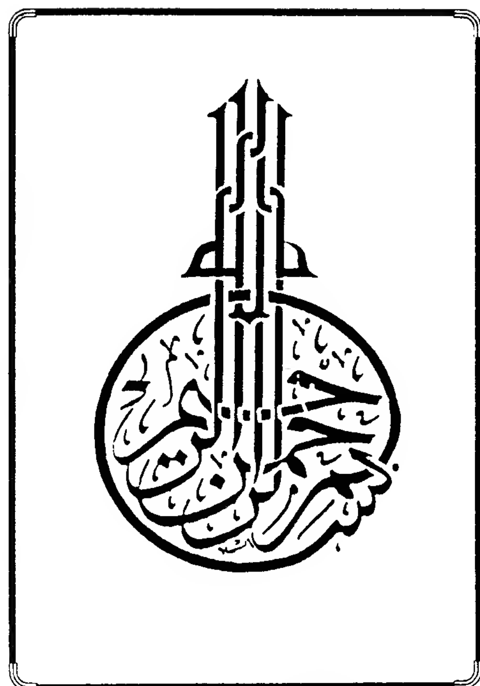
١- روسيا - وصف رحلات ٢- المسلمون في روسيا أ- العنوان خ

ديوي ٩١٤،٧٠٤ ٢٠/٢٢٩٠
رقم الإيداع : ٢٠/٢٢٩٠
ردمك : ٧-٣٢٨-٣٦-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م

رقم الايداع ٢٠/١٤٥٦
ردمك : ٤ - ١٠٠ - ٣٦ - ٩٩٦٠





المقدمة

بسم الله، والحمد لله، وأما بعد؛

فإن هذا كتاب من كتب ثلاثة عن أقاليم من الأقاليم الواقعة في جنوب جمهورية روسيا الإتحادية كتبتها أثناء زيارة قمت بها إلى تلك الأقاليم بدأت بالمرور بجمهورية تتارستان ومنها انطلقت إلى زيارة جمهورية الجوفاش ثم جمهورية (ماري إل) وسودت عنها كتاباً عنوانه: «جمهوريات القبائل الروسية» ومنها انتقلت إلى إقليم (أورنبورغ) الذي عاصمته مدينة (أورنبورغ) فكان له كتاب خاص به عنوانه (إقليم أورنبورغ) ثم هذا الكتاب الثالث عن إقليمين من الأقاليم الروسية الجنوبية تلك، هما (سمارا) الذي يرجع اسمه إلى أصل عربي عريق كما قيل لنا، و(استرا خان) الذي ترجع تسميته إلى أصل مسلم عريق.

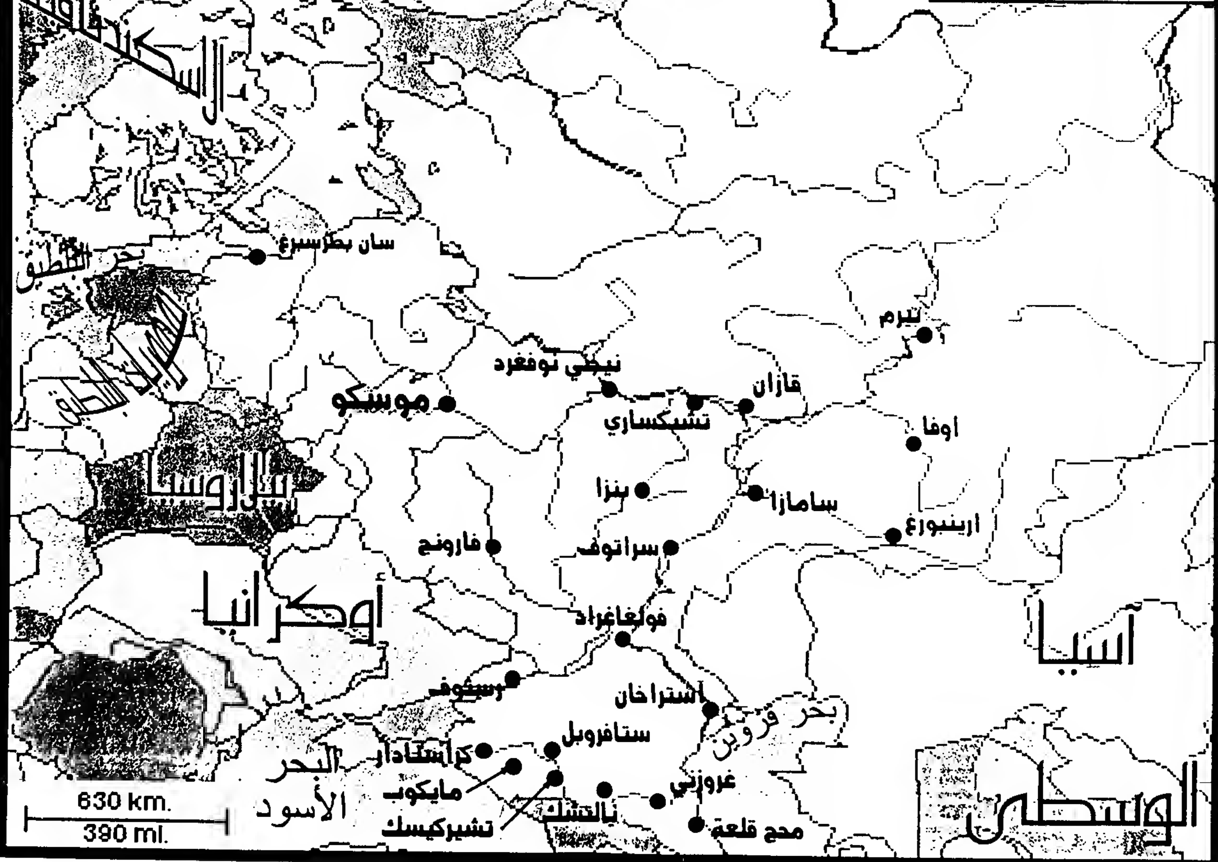
وقد سجلت في الكتب الثلاثة - على عادتي في الرحلات - ما شاهدته أو سمعته مما يتصل بما شاهدته، بعد التحقق منه أو إسناده إلى مصدره، إن لم يمكنني التحقق منه، وشددت القول وفصلته بقدر ما استطعت من قوة، وما توفر لي من وقت فيما يتعلق بالمؤسسات الإسلامية الموجودة في تلك البلاد في الوقت الحاضر، ومن أهمها المساجد التي كان الشيوعيون قد صادروها وبعضها خربوه، ثم نهض

المسلمون بعد الشيوعية فاستعادوها، وشرعوا منذ سنوات ثلاث أو أربع، يعمرون ما خربته الأيام، ويصلحون ما أفسده الإلحاد والإهمال، إلى جانب إنشاء مساجد جديدة، وفتح فصول مدرسية فيها عديدة، حتى صارت حالة المساجد أنموذجاً وعنواناً على حالة النشاط الإسلامي، أو عدم النشاط في تلك البلاد، التي ابتليت بالشيوعية والإلحاد، أمداً طويلاً من الآماد.

والله المستعان وإليه المرجع والمعاد.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي



موقع سمارا واستراخان من جمهورية روسيا الاتحادية

إقليم سمارا

سمارا اسم مدينة تقع بالقرب من مصب نهر سمارا في الضفة اليسرى لنهر الفولغا وكانت في البداية عبارة عن ميناء نهري ثم جرى تشكيل مقاطعة باسم الفولغا الأوسط في ١٤ مايو ١٩٢٨ ثم سميت باسم مقاطعة كويبشيف Kuibishev في ٢٧ يناير ١٩٣٥، وكانت عاصمة المقاطعة تعرف باسم سمارا حتى ذلك العام ١٩٣٥ وحينذاك أصبحت المقاطعة وعاصمتها تعرف باسم كويبشيف وهو من أوائل الزعماء الشيوعيين ومن ضباط الجيش الأحمر وقد مات في اومسك عام ١٩٣٥ ثم عاد للمقاطعة اسمها القديم سمارا على أثر انهيار الشيوعية.

وتبلغ مساحة مقاطعة سمارا ٥٣٦٠٠ كيلومتر مربع، وعدد سكانها أكثر من ثلاثة ملايين نسمة منهم ١٠٪ مسلمون يتألفون أصلاً من التتار المسلمين إلى جانب الباشقرد والقازاق ولهم في المقاطعة ٤٥ مسجداً. ونائب محافظ الولاية مسلم من داغستان اسمه حبيب الله بن رمضان خساييف.

الأماكن التي زارها وفد الرابطة:

١ ـ مدينة سمارا Samara التي يبلغ سكانها ١,٢ مليون نسمة فيهم ٥٠ ألف مسلم لهم:

أ ـ الإدارة الدينية لمسلمي مقاطعة سمارا التي يرأسها الشيخ

واعظ بن لطف الله بن جار الله وهو رجل جيد يقع مكتبه ومنزله بالقرب من المسجد المركزي.

ب ـ المسجد المركزي بني عام ١٩٦٧ ثم جدد عام ١٩٨٥ ويتكون من دورين: المصلى في الدور الأول والشيخ واعظ لطف الله هو الإمام والخطيب ويساعده صهره الشيخ عبد الأحد فؤاد وهو من خريجي معهد الإمام البخاري في طاشكند ويظهر عليه التقوى والصلاح والله أعلم.

وقد أدى وفد الرابطة صلاة الجمعة مع المصلين في المسجد، وألقيت فيهم كلمة تضمنت نقل تحيات خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله وتمنيات الأخوة المسؤولين في الرابطة والمسلمين في الحرمين الشريفين ونصيحة وتوجيهاً.

ج ـ مسجد سمارا الجديد ويقع في حي استراساز اكوره وقد تحدث الأستاذ رافائيل بن خير الله ياغورين المشرف على بناء المسجد المذكور بأن مساحة الأرض الإجمالية هي ١,٥ هكتار وقد منحتها محافظة سمارا لهم كما خصصت لهم مساعدات مالية لبناء المسجد الذي يتكون من دورين على مساحة قدرها ٥٨ × ٢٢ متراً وسيكون الدور الأرضي مكاتب ومدرسة ومصلى نساء والدور الأول سيكون مصلى لألف شخص.

وقد وقف وفد الرابطة على المشروع الذي هو قيد الإنشاء وتم تشييد معظم جداره وتعكس ضخامته اهتمام المسلمين والمسؤولين في بنائه وسيكون مركزاً إسلامياً مهماً في هذه المدينة الاستراتيجية والصناعية التي يقولون عنها إنها المدينة الثانية بعد موسكو في هذا المكان.

يوم الجمعة ١٦ صفر ١٤١٦هـ ١٢ تموز ١٩٩٥م:

من أورنبورغ إلى سمارا:

غادرنا مطار (أورنبورغ) المنسوب إلى مدينة (أورنبورغ) عاصمة إقليم أورنبورغ في الساعة التاسعة والدقيقة الخامسة والثلاثين صباحاً على طائرة صغيرة ذات محركين مروحيين يسمونها أ ـ أن ٢٤. ولكنهم يكتبون أن على هيئة كتابة الهاء من الحروف اللاتينية H.

وذلك اختصاراً لاسمها الكامل انطونيوف ٢٤. وتحمل ٤٤ راكباً كل أربعة ركاب في صف مكون من أربعة كراس.

وقد امتلأت مقاعدها بالركاب. وهذا أمر معتاد ولكن الأمر غير المعتاد في بلاد العالم خارج روسيا أنهم طلبوا من كل راكب أن يحمل أمتعته وحقائبه ولو كانت ثقيلة إلى الطائرة حتى يضعها داخلها ولم يسمحوا بأن يتسلموا من الركاب أية حقائب، ولذا لاحظت أن أمتعة الركاب خفيفة وكلها محمولة باليد، وقد وضعوها على الرفوف المخصصة لذلك عند مدخل الطائرة، ولذلك خلت أرفف الطائرة من الحقائب اليدوية ومن غيرها حتى الملابس ليس عليها شيء لأن الجو صيفي حار اقتصر أكثرهم فيه على الملابس الخفيفة الضرورية وأما النساء فإنهن تخففن من أكثر ملابسهن بدعوى أن فصل الصيف القصير يشفع لهن بذلك ولأنه لا يوجد من ينكر عليهن التبرج.

وقد أعلنوا من مكبر الطائرة كلاماً قصيراً لم نفهم منه شيئاً لأنه بالروسية وحدها مع وجود لغة ثانية هي التي كانت الأصيلة في المنطقة وهي اللغة التتارية، ولكنها غير رسمية الآن ولا لغة رسمية إلا الروسية في هذا الإقليم.

وفي هذه الطائرة مضيفة واحدة لم تعمل أي شيء، بل جلست في آخر كرسي فيها تقرأ كتاباً أخرجته من حقيبتها.

ومن الطريف أنها تقرأ في الكتاب على حين كون الركاب لا يقرأون شيئاً فلم تقدم الطائرة أية جرائد أو مطبوعات، وليس في جيوب المقاعد أي شيء من ذلك ولا مما يتعلق بالرحلة أو الشركة أو نوع الطائرة ومن العادة الحميدة عندهم أن التدخين والخمر ممنوعان على متن الطائرة وحتى الطعام والشراب لم يقدموا أي شيء منهما وإنما كان ما عمله الركاب أن استسلموا للنعاس، أو الحديث مع رفقائهم إذا كان لهم رفقاء.

ومن الطريف أن المضيفة صارت تسأل الركاب عن الذاهبين إلى (سمارا) وتضع إشارة أمام أسمائهم في ورقة في يدها، وذلك يوحي أن الطائرة ستذهب بعد سمارا إلى مطار آخر. ولكنني رأيتهم نزلوا كلهم من الطائرة عند الوصول إلى (سمارا).

اتجهت الطائرة بعد أن استقام طيرانها جهة الغرب حيث موقع مدينة (سمارا) وكان الجو صاحياً، بل صافياً تمتعت خلاله بمنظر الأرض من الطائرة وإن كانت المناظر فيها لم تتبدل كثيراً عما رأيته في قدومي من قازان إلى أورنبورغ، وفي السفر من أورنبورغ إلى مدينة (أورسك)، وهو منظر الحقول الزراعية التي تركت أماكن فيها دون زراعة إمّا من أجل إخصابها للموسم الزراعي القادم أو إنها تبدو كذلك لأنها كانت مزروعة بالقمح الذي حصدوه أو بدا من الطائرة كذلك، لأنه قد جف وصار لونه أبيض إلى الصفرة ما هو.

مع أن هذه المنطقة بعيدة عهد بالمطر في هذا الجو الصيفي الممطر

في العادة وأهلها يشكون من تأخر المطر لأن موسم الصيف هو موسم الأمطار، أما الشتاء فإنه موسم تساقط الثلوج الكثيفة، على أن الثلج لا يقتصر سقوطه على فصل الشتاء وإنما يتناول أيضاً أطرافاً من فصلي الخريف والربيع.

عندما أغلق باب الطائرة قبل إقلاعها ثم بعد إقلاعها بفترة شعرنا بالحر وانحباس الهواء فيها لأنه ليست فيها صمامات لتجديد الهواء إلا أنه بعد أن طارت فترة وأخذت نهاية الإرتفاع بدأت تبرد فشعرنا بالبرد الشديد ولم يبال المسؤولون بذلك، مع العلم بأنها على صغرها فيها باب مغلق دائماً بين الركاب وغرفة القيادة التي فيها الطيارون.

وهذا من شواهد عدم مبالاتهم براحة الجميع، بل بمشاعرهم وهو شبيه بما ذكرته من قبل من أننا اضطررنا أن نحمل حقائبنا فنمر بها عبر منطقة المغادرة ثم نحملها إلى الطائرة من دون أن يساعدنا أحد من عمال المطار وإنما تولى مساعدتنا في ذلك الأخوة المسؤولون من أهل أورنبورغ وعلى رأسهم الشيخ عبد الباري مفتي إقليم أورنبورغ، فحملوها معنا حتى وضعوها داخل الطائرة.

وقد استمر الطيران رخاء سهلاً وهي عادة عرفتها في الطائرات الروسية أن تكون أكثر ثباتاً واستقراراً وأقل اضطراباً من الطائرات الأوروبية والأمريكية.

ولا يزال المنظر على الأرض منظر الحقول المزروعة بينها أماكن حقول أخرى متروكة لم تزرع إلى جانب القمح الحصيد.

هذا والطائرة تطير إلى جهة الشمال الغربي حيث مدينة (سمارا) أو إلى أيسر قليلاً من ذلك.

وكانت رتابة الطيران وعدم تغير صوت المحركين قد جلب النعاس إلى أكثر الركاب، ولم يكدر ذلك شيء حتى مرور المضيفة في الطائرة لم يحدث لكونها لم تمر بين الركاب، ولم تفعل شيئاً لخدمتهم.

وعندما رأيت امتداد الأراضي الزراعية والحقول الواسعة منذ أن غادرنا قازان عاصمة جمهورية تتارستان وسافرنا منها إلى أورنبورغ وكذلك ما رأيناه في إقليم أورنبورغ من الطائرة ومن السيارة ثم هذا الذي أراه الآن عجبت من شكواهم من نقص الأغذية في بعض السنين وشرائهم المستمر للقمح من خارج البلاد وبخاصة من الولايات المتحدة الأمريكية.

هذا مع أن ما رأيته اليوم ليس إلا جزءاً صغيراً من أراضي روسيا الجنوبية المنتجة ولكنه سوء التخطيط، وتخبط الإدارة، والقضاء على المواهب الفردية بإذابة الفرد في المجتمع الشيوعي الذي توجهه الحكومة وحدها عنوة وقسراً ولا يزالون حتى الآن رغم تخليهم رسمياً عن الشيوعية يتبعون الأساليب القديمة في إدارة البلاد بحكم أن المسؤولين والموظفين التنفيذيين ليست لديهم الخبرة إلا بما كان في زمن الشيوعية وأكثرهم ليست لديهم الأهلية لأن يعرفوا غيره.

ولا ترى القرى في هذه الأراضي واضحة من الطائرة لأن المنطقة بطبيعتها قليلة السكان، ولكون القرى مبنية في الغالب من الخشب الذي غيرته التقلبات والعوارض الجوية فغدا في لون الرماد، وكذلك سقوف هذه المنازل هي من الصفيح الذي استحال لونه إلى ما يقرب من ذلك كما ذكرنا.

بعد أن أمضت الطائرة (٥٠) دقيقة من الطيران المتزن المنتظم بدأنا نرى قطعاً من الغابات بخلاف ما كان قبل ذلك حين كان المنظر السائد هو منظر الحقول المتسعة. وتبين أن أكثر الغابات تكون في الأماكن العالية التي تشق تسويتها لمزارع الحقول.

في مطار سمارا:

بعد ساعة وخمس دقائق بدأت الطائرة بالتدني إلى الأرض فوق مناطق كلها معمورة بالزراعة وتكثر فيها القرى الصغيرة.

ثم تكلمت المضيفة كلاماً مختصراً بالروسية لم نجد من يترجم معناه لنا.

وتجدر الإشارة إلى أن الركاب معظمهم إن لم يكونوا كلهم من الروس، أو ذوي المظهر الروسي، ولكنهم ليسوا من روس موسكو ونواحيها الثقلاء الأجسام وإنما هم من روس الجنوب الذين يشتد شبههم بالسلاف وإن كانوا أقل وجاهة وأثقل أجساماً من السلافيين.

وقد أبقى الطيار إشارة ربط الحزام مضاءة، ولم يسمحوا كعادتهم بالتدخين داخل الطائرة أو في طول الرحلة.

هذا، والجو صاح صاف كأنه جو الرياض حتى إنني أمس لم أستطع أن أبقى في الغرفة إلا بعد أن فتحت النافذة والباب لحرارة الجو فيها في مدينة أورنبورغ.

ثم كثرت تجمعات المياه التي هي أشبه بالبحيرات الصغيرة، وبدا نهر صغير قد كون مجراه مستنقعات واسعة.

وأكثر المناظر بروزاً قطع من الغابات متفرقة وحقول قمح حصيد، وخط إسفلتي واضح مع أن خطوط الإسفلت في البراري الروسية أمر لافت للنظر لقلة الطرق المزفتة عندهم بالنسبة إلى أوروبا الغربية.

وهبطت الطائرة في مطار سمارا في الساعة الحادية عشرة بتوقيت أورنبورغ التي غادرناها ويوافق ذلك العاشرة بتوقيت سمارا المتقدم ساعة عن توقيت موسكو وساعتين عن توقيت المملكة، وقد استغرق الطيران ساعة و٢٥ دقيقة.

كان ما أنست له في هذا المطار منظر زهور برية صفراء وبنفسجية اللون وكلها زهور من أعشاب وحشية وهي التي نبتت عفواً من دون استنبات. وذلك لكونه ذكرني بزهور الربيع في الرياض - جمع روضة في بلادنا - إذا كانت ريانة من المطر. وأزهرت في آخر أيام الربيع. وربيع هذه البلاد هو هذا الوقت الذي نحن فيه وهو صيفنا اللافح، فشهر يوليو هو أشد أشهر السنة حراً عندنا وفيه نجم الشعرى الذي به يتوقد الحصا كما كان الشعراء منا يقولون.

وامه فصل الربيع عندنا فإنه عندهم يذوب في فصل الشتاء لأن الثلج فيه لا يذوب، إلا ما كان من آخره في آخر شهر مايو حيث تبدأ الكنة: كنة الثريا عندنا وهي اختفاؤها عن النظر ويبدأ الحر الشديد.

وعادت رؤية الطائرات الكثيرة في المطارات الروسية حيث رأيناه هنا كثيرة ما بين نفاثات ومروحيات، وتنبغي الإشارة إلى أن مطار (سمارا) هو مطار دولي الآن أي تنزل فيه وتطلع منه طائرات تتوجه إلى خارج روسيا مثل اسطنبول وتفليس وغيرهما.

ومما استرعى انتباهي أنهم كتبوا كلمة سمارا بالروسية كتابة تقرب من النطق بالحروف اللاتينية لولا حرف واحد، إذ كتبوه هكذا (سمابا) لأن الراء عندهم تكتب كما تكتب الباء بالحروف اللاتينية وهذا كما رأيته (CAMAPA).

وقفت الطائرة وهدأ محركاها، ولم يتحرك أحد من الركاب وكدنا نقوم لننزل ولكننا رأينا الجميع جالسين فعرفنا أن ذلك لكونهم ينتظرون نزول الطيارين، فعندهم عادة في الطائرات الروسية ألا ينزل الركاب إلا بعد أن ينزل الطيارون بل والملاحون كلهم قبلهم تأدباً معهم. مع أن الطيارين والملاحين لم يقدموا للركاب أية خدمة إلا قيادة الطائرة التي لا تعتبر خدمة إلاّ لمالكي الطائرة والذين يقبضون أجرة راكبيها.

ومن العادات القديمة عندهم التي رأيتها لأول مرة عندما زرت الإتحاد السوفياتي السابق زيارتي الأولى ألا يتحركوا كذلك حتى ينزل الضيوف «ضيوف البلاد» فلم يكونوا يتحركون حتى يكتمل نزولنا من الطائرة وكنت آنذاك رئيس وفد مؤلف من سبعة أشخاص.

أما الآن فإننا لا نعتبر من الناحية الرسمية ضيوفاً على الدولة، وإنما دخلنا البلاد بسمة زيارة اعتبرت خاصة وإن كانت سمة سياسية موضوعة في جوازينا السياسيين وجواز ثالث معتاد.

ومن الطريف أن الملاحين وهم يعرفون ألا أحد ينزل قبلهم لا يسرعون بالنزول. وإنما يسيرون كأنما الأمر لا يعنيهم بشيء. مع أن المفروض أن يسرعوا في النزول ما دام الناس ينتظرون نزولهم.

كان همنا أن نعرف كيف نتسلم أمتعتنا وحقائبنا الثقيلة التي لم يتسلمها منا أحد، فلو فرض أن شيئاً منها فقد فإننا لا نستطيع المطالبة برده. لأنه لا يوجد بين أيدينا أية أوراق أو أي إثبات من المطار بأنها في الطائرة، إذْ لا يتعرضون للأمتعة في مثل هذه الطائرة الصغيرة والمتوسطة وإنما يتركون الراكب ينقلها بنفسه إلى الطائرة وينزلها بنفسه منها.

وفي هذه المرة رأيت الركاب كلهم نزلوا من الطائرة وليست معهم أمتعة مما أعطانا الانطباع بأن أمتعة الركاب سينزلها المسؤولون من المطار إلى المبنى.

وكانت مضيفة روسية أرضية قد وقفت عند الطائرة وهي تحدق فيها وفي الركاب دون أن تفعل شيئاً فقلت لها (باقاج) وهذا اللفظ الفرنسي هو المستعمل باللغة الروسية لكلمة الأمتعة، فلم تكلف نفسها عناء الرد وإنما أشارت بطرف إصبعها إلى أنها في الطائرة. فقلت في نفسي: (هذي ما تبي مطوع) ثم أراد الإخوان المرافقان أن يستوضحا منها الأمر فكلماها بالإنكليزية والتتارية فلم تفهم وربما لو فهمت لم ترد أن ترد فمشينا مع الركاب لمسافة طويلة لأنه لا توجد حافلة تنقل الركاب والمبنى بعيد نوعاً ما ودخلنا منطقة فيها سير قصير لتسلم الأمتعة وقفنا عنده وحدنا وقد مضى الركاب كلهم وإذا بالمفتي الشيخ (واعظ بن لطف الله بن جار الله) رئيس الإدارة الدينية في إقليم سمارا قد وصل وقد جاء لاستقبالنا في المطار وهو يعرف اللغة التتارية بل هي لغته ورفيقنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله يعرفها، فكلم أهل المطار فأخبروه بأن علينا أن نعود إلى الطائرة ونحضر الأمتعة.

ذهب الإخوة مع المفتي بعد إذن الضابط المسؤول عائدين إلى

الطائرة، وبقيت أحرس حقائب الأيدي حتى عادوا بالأمتعة وهم يسحبون منها ما يسحب ويجرون ما يجر ويحملون ما يحمل.

وهذا مظهر من مظاهر عدم عناية المسؤولين الشيوعيين بالإنسان وعدم اهتمامهم بما يريحه، بل ربما كانوا يقصدون إتعابه حتى يذل ويخضع. وإلا لماذا هذا التصرف؟ وإذا كانوا يقولون الآن كما كانوا يعلنون في زمن الشيوعية، إن الإنسان لا يجوز أن يستخدم أخاه الإنسان فإن حكومتهم المنبثقة عن الحزب الشيوعي تستخدم جميع الناس وتجعلهم يعملون سخرة لديها حيناً، وبالرضا المأخوذ منهم بالخداع تارة أخرى.

وإذا أردنا أن نحاول إنصاف القوم بهذه الطريقة فلنقل: لماذا لم يحضروا عند الطائرة عربات من عربات اليد يحمل عليها المسافرون أمتعتهم؟ أو لماذا لم يحضروها كلها على عربة كبيرة إلى مبنى المطار ثم يتركوا كل شخص يأخذ متاعه؟

كنت أتأمل داخل المطار والأخوة ذاهبون إلى الطائرة فأجد أنه قديم وصغير رغم أنه مطار لمدينة مهمة يزيد عدد سكانها على مليون نُسمة، ويتصل ببلاد خارجية أيضاً، وإلى قدمه فإن المعدات فيه كلها قديمة، وهي قديمة متخلفة مما يؤكد ما عرفته من أن هذه البلاد الروسية وقفت عن التقدم في الأمور المادية منذ سنوات، وإذا وقفت الأمَّة عن التقدم فإنها تتأخر بلا شك ذلك بأن الزمن يتقدم وحاجات الناس تكثر وتتضخم فتكون جهودها متأخرة عن مسايرتها.

ومع هذا التأخر فإنهم أبدوا بعض الشكليات المضحكة منها أننا عندما أردنا النزول من الطائرة صارت المضيفة التي لم تقدم أية خدمة في الطائرة توقفنا بعد أن خرج أربعة أو خمسة ركاب تريد بذلك - زَعَمَتْ - حفظ النظام مع أن الأرض التي ننزل فيها واسعة ولا تحتاج إلى أن يتأخّر أحد فيتقدم من كان قبله، وحتى عند سلم الطائرة عندما نزلنا إلى الأرض

استمهلتنا المضيفة حتى اجتمع عدد منا ثم سمحت بأن نسير إلى مبنى المطار وليس في هذا أي شيء مفهوم فضلاً عن أن يكون مهضوماً.

وعند الخروج من المبنى أدخلوا جميع الأمتعة والحقائب في فاحص كهربائي مع أننا قادمون من رحلة داخلية.

وجدنا المفتي الشيخ (واعظ بن لطف الله بن جار الله) قد أحضر حافلة صغيرة مستأجرة في انتظارنا فطلبنا منه أن نعرف موعد السفر إلى مدينة (استراخان) عاصمة إقليم استراخان. فذهب مع الأخ المرافق (رحمة الله بن عناية الله) إلى داخل مبنى المطار، وقد أبطآا إبطاءاً شديداً ذكرا عندما عادا أن ذلك كان بسبب عدم وجود الموظفة المسؤولة عن بيع التذاكر على مكتبها، وأن كل من سألوهم عنها أخبروهما أنه يجب أن ينتظرا عودتها. وقد عادا بعد أن اشتريا التذاكر وحجزا في ضحى الغد.

لم يكن لدي عندما ذهبا إلا مراقبة الناس الذين يأتون للمطار أو يخرجون منه قادمين، وقد قدمت طائرتان أثناء ذلك وكلاهما من داخل البلاد.

لاحظت أن الأطفال وبعض المسنين يلبسون ملابس شتوية مع أن الجو كان معتدلاً وكنت ألبس بدلة خفيفة ولكن يظهر والبلاد ممعنة شمالاً أنها حتى في فصل الصيف قد تأتيها موجة برد من برد الصيف كما صادفنا ذلك في موسكو بعد ثلاثة أيام عندما عدنا إليها من أستراخان، وكان الهواء بارداً غير أن الجو معتدل، وأكثر النساء وبخاصة الشابات منهن عليهن ملابس قصيرة.

ومن مزية هذا المطار أنهم جعلوا ما يلي البلد من المطار وهي التي يصل إليها الواصلون بعد الخروج من مبنى المطار ساحة واسعة فيها مواقف للسيارات التي هي قليلة بالنسبة لسكان المدينة. مع ذلك عجبت عندما رأيت على هذه الساحة القريبة من المطار مصنعاً ذا مدخنتين.

ومن الأشياء التي رأيتها في المطار أن شرطياً يفتش السيارات بشكل انتقائي، ولا يقتصر التفتيش على رؤية أوراق السائق، وإنما يفتش حقائبها وهي داخلة من المدينة إلى المطار، فأخبرونا أن السبب في ذلك أن في هذه المدينة مصانع واسعة للأسلحة، وأن بعض الناس يشترون هذه الأسلحة من الموظفين الذين قد يكونون سرقوها، ويصدرونها معهم، إلا أن المرء يتساءل عما إذا كان ذلك سائغاً مع أن موظفي المطار سيفتشون الأمتعة بالفاحص الكهربائي الذي من السهل فيه اكتشاف الأسلحة المخبأة.

ثم جاء الضابط إلى سائق سيارتنا وجعل يطلع على أوراقه وأوراق السيارة ويدقق فيها ولا ندري ماذا يدور بينهما رغم كوننا نسمع كلامهما لأنه لا أحد يترجم لنا. وانتهى الأمر بأن كتب الضابط ورقة أعطاها السائق ولم يسأل عنا أو يسألنا عن شيء. وحتى حقائبنا وأمتعتنا لم ينظر إليها مع أنها تسترعي الانتباه لكثرتها وغرابتها بالنسبة إلى ما يحمله الركاب منهم من أمتعة في العادة.

ورأيت الركاب منهم يأتون إلى المطار وليس معهم إلا القليل من الأمتعة لعلمهم بما يجره حمل الأمتعة الثقيلة عليهم من التعب، ولم أر أمتعة تذكر إلا مع أجانب منهم جماعة عددها ثلاثة ولكن كان معهم مواطنون من أهل البلاد.

والحقيقة أن من يأتي إلى روسيا فإنه لا بد له من مرافق أو مساعد من أهل البلاد وإلا فإنه لا يستطيع أن يمر في المطارات بسهولة، بل ربما لا يستطيع أن يمر أصلاً، لأن القوم لا يعرفون الإنكليزية، والروسية لا يعرفها الأجانب وللإدارة الحكومية هنا طرق ومطالبات لا يعرفها الآخرون. ونحن من أولئك الأجانب الذين لولا وجود إخوتنا من المفتين ومن يتبعونهم معنا لم نستطع أن نركب وننزل بسهولة مع أن أحدنا وهو (رحمة الله بن عناية الله) يعرف اللغات الشائعة هنا المتفرعة من التركية القديمة لأنه هو تركستاني حاصل على الجنسية السعودية.

وذلك بخلاف ما عليه الحال في المطارات العالمية في سائر القارات حتى في إفريقية ما عدا بعض الإستثناءات في إفريقية كنيجيريا. وقد كنت أسافر وحدي في أنحاء أمريكا الجنوبية من البرازيل وغيرها فلا أحتاج إلى مرافق رغم كون القوم لا يعرفون الإنكليزية إلا قليلاً حتى موظفي المطارات في البرازيل لا يعرفون الإنكليزية في العادة ولكنني أعرف شيئاً من لغتهم البرتغالية وهم على غاية من التنظيم وانسياب العمل الإداري فلا أجد صعوبة في التنقل منفرداً في مطاراتهم.

وحتى حول العالم قد جربت السفر وحدي بدون مرافق مثلاً من لوس أنجلوس إلى فيجي ثم نيوزيلاند فأستراليا ومرة أخرى من أستراليا إلى نيوزلندا ثم جزر تونغا في جنوب المحيط الهادىء فجزيرة ساموا ثم ساموا الأمريكية فجزر كوك، ثم انتهى بي المطاف آنذاك إلى تاهيتيَ التي هي أقصى المعمور من تلك الجهة ومنها عدت إلى أستراليا. ولم أجد أية صعوبة في ذلك.

وأما في هذه البلاد الروسية فالأمر مختلف كما قدمت.

من المطار إلى مدينة سمارا:

مع أنني لا أخصص مثل هذا العنوان في العادة فإنه هنا ينبغي أن يذكر لأن مطار المدينة يبعد عنها (٥٠) كيلومتراً ولكوننا بقينا ساعة ونصفاً في انتظار الانتهاء من قطع التذاكر إلى أستراخان، ولكون مدينة سمارا مدينة كبيرة يبلغ عدد سكانها مليوناً وزيادة ويسميها بعضهم (موسكو) الثانية لأهميتها عند الروس، وكانت مدينة مغلقة دون الأجانب بل حتى المواطنين كانت توضع دونهم قيود ودون زيارتها، وذلك لكونها مدينة مختصة بصناعة الأسلحة الحربية المهمة مثل الطائرات الحربية المطورة. كما تصنع المركبات الفضائية وهذه تحتاج إلى أن تكون تقنيتها سراً من الأسرار التي تحرص الدولة على صيانتها.

وقد فتحت للأجانب منذ عهد قريب.



الطريق بين مدينة سمارا ومطارها

تركنا المطار إلى المدينة مع طريق مزدوج جيد على يمين السائر فيه أكداس القمح الحصيد وعلى يساره حقول خضر لعلف الحيوان وهو علف يبذرون بذوره وينشفونه لهذا الغرض غرض أن يكون علفاً للحيوان.

واعترض فوق الطريق جسران تسير عليهما السيارات وهذا نادر في الطرق الروسية، إذ العادة أن يجعلوا في هذه الطرق دوارات وهي البقع المستديرة التي تدور عليها السيارات وهي تنحرف مع طرق تذهب يميناً أو يساراً.

والمنطقة تتألف من ربى متطامنة خضر في جمال ظاهر، وكلها معشبة مزهرة مما يدل على أن مطراً صيفياً قد جادها قريباً.

ولم أر أية مبانٍ أو منشآت على طريق المطار مثلما هي عليه الحال في المدن الروسية الأخرى، وذلك أنه لا يمكن لغير الحكومة في النظام الشيوعي أن يقيم أبنية أو مشروعات على الطرق، والحكومة تبني الأبنية العالية المتعددة الطوابق، شققاً صغيرة لإسكان المواطنين. وتكون هذه الأبنية عند مداخل المدن أو في ضواحيها وذلك ليسهل ربطها بشبكات الماء والكهرباء والتدفئة التي هي لازمة هنا مثل لزوم الماء عندنا لشدة البرودة.



قبيل الدخول لمدينة سمارا

ثم وصلنا إلى منطقة فيها منازل الإنتجاع كما يسمونها وهي منازل تكون متفرقة غير متلاصقة يظهر الواحد منها على البعد كما لو كان غرفة واحدة، إلا أنه أحياناً يكون من طابقين ويكون في منطقة صغيرة من الأرض لذلك لا تكون المنازل متلاصقة.

وهذه البيوت يسكنها القادرون على شرائها أو الحصول عليها من الدولة في الصيف. ويزرعون ما حولها من أرض ضيقة بطاطس يعيش على المطر ولا يتكلفون مشقة في سقيه أو جلب الماء إليه. ويخزنون ما يحصلون عليه من بطاطس لفصل الشتاء. وكلها ذات سقوف مسنمة تسنيماً حتى تنزلق عنها الثلوج. وقال الأخ المفتي بهذه المناسبة: إن درجة البرودة في مدينتنا تتدنى في الشتاء إلى ما يقرب من ٣٠ درجة تحت الصفر.

ثم مررنا فوق النهر الصغير الذي رأيناه من الطائرة ويسمى (نهر سرك) ويصب في نهر الفولقا العظيم الذي تقع عليه المدينة.

مدينة سمارا:

رأينا المدينة على البعد ذات مصانع ترتفع مداخنها إلى عنان السماء مع أن المصانع المهمة السرية ليست ملاصقة للمدينة، وتنفث تلك المداخن أو الأبراج الدخان الكثيف.

دخلناها مع شارع مزدوج كطريق المطار بين جزئيه الذاهب والآيب جزيرة فيها عشب بري أخضر إلا أننا عندما دخلنا المدينة صار الطريق واحداً عريضاً غير مزدوج. وقد أعجبني التشجير الموجود فيها حيث تكاد الأشجار تخفي المدينة فتكون مدينة في غابة، بدلاً من أن توصف بأنها مدينة فيها حدائق.

وأول ما وصلناه من منازل منازل تقليدية منفردة قديمة، والبيت التقليدي في هذه البلاد يكون من الخشب ذي السقف المسنم من الصفيح والقليل من هذه البيوت مبني بالآجر، ولكنه مسقف بالصفيح الذي لحقه الصدأ. ولا بد في البيوت التقليدية أن تكون الأفنية المكشوفة بجانبها أو التي تتقدمها إلى الشارع ذات أسوار من الأخشاب الذي جعل ألواحاً،

ويكون رقيقاً ولكن يصف بعضه بجانب بعض حتى يؤلف حيطاناً غير مرتفعة.

ثم وصلنا إلى أبنية قديمة ذوات طبقات متعددة أكثرها من أربع طبقات وهي مما أقيم قبل الشيوعية.

أما الأبنية الشيوعية المعتادة التي أسميتها في بعض كتبي بالعمائر الشيوعية لأنها موجودة في كل البلدان الشيوعية، بل هي الأنموذج الوحيد للإسكان العام في جميع المدن الشيوعية في العالم من شرق أوروبا إلى الصين، وتبنيها الدولة شققاً صغيرة لإسكان موظفيها وللإسكان العام. فهي هنا كثيرة بحيث تبدو كأنما هي متراصة في صف طويل على الشارع الرئيسي للمدينة وهو شارع واسع بشكل لافت للنظر، بحيث لم أر في المدن الروسية في هذه السفرة أعرض منه ولا أكثر صيانة وعناية به قبل هذه المدينة.



الشارع الرئيسي في مدينة حمارا

وفي وسط هذا الشارع حديقة واسعة.

والسيارات في هذا الشارع كثيرة كثرة لافتة للنظر مما يؤكد الانطباع بأهمية هذه المدينة وأنها جديرة بالاسم الذي أطلق عليها وهو موسكو الثانية، إلا أنها أجمل وأنظف من موسكو مع أن المقارنة بينهما لا تصح، لأن موسكو يبلغ سكانها قرابة ثمانية ملايين، وهذه لا يتعدى سكانها مليوناً ونصفاً. غير أن السيارات الكثيرة فيها ليست فاخرة فهي سيارات الركوب المعروفة التي لا تختلف من مكان إلى مكان من البلاد الروسية وهو (لادا) في الأكثر تليها الفولقا التي هي أفخر منها وأكبر ولكنها أقل عدداً. كما أن في هذا الشارع، سيارات الشحن الكبيرة الخشنة والحافلات التي لا بأس بمظهرها التي هي موجودة في سائر المدن الروسية وهي لازمة بسبب قلة السيارات الخاصة عند عامة الناس في روسيا.

طيارة الحرب العالمية الثانية:

اشتهرت هذه المدينة بمصانع الطائرات فيها ولذلك رأيناهم وضعوا في مستديرة وسط ميدان لا بأس بسعته في عرض هذا الشارع الضخم طائرة حقيقية استعملت خلال الحرب العالمية الثانية وهي طائرة حربية غير كبيرة شأن الطائرات الحربية كلها في ذلك الوقت.

واستمر هذا الشارع الواسع مستقيماً إلا أنه تغلق النظر في نهايته مدخنة عالية لمصنع بعيد. ويسمى هذا الشارع (شارع روسيا) أو طريق روسيا. وهو شارع جميل حقاً، وزادته جمالاً كثرة الأشجار والحدائق التي تقع عليه بمعنى أنك تسير وحول الشارع أبنية، إلا أنك تصل إلى منطقة منه عليها حدائق. مع أن الشارع نفسه مشجر كله.

حديقة قاقارين:

وصلنا إلى الحديقة الواسعة الواقعة على الشارع فدخلنا إليها متياسرين فرأيتها واسعة جداً معتنى بها واسمها (حديقة قاقارين) إضافة إلى (يوري قاقارين) أول رائد فضاء روسي، بل أول إنسان دار حول الأرض.



شارع في مدينة سمارا

وقد احتفى به الروس فأكثروا من تسمية الحدائق والشوارع والميادين باسمه في كثير من مدنهم، فقد رأيت ميداناً في مدينة (أورسك) الواقعة في إقليم (أورنبورغ) الذي زرناه قبل إقليم سمارا هذا اسمه (قاقارين) قد وضعوا فيه نصباً ارتفع منه كالجناح الضيق على هيئة منجل في رأسه صاروخ كالصاروخ الذي حمل (قاقارين) إلى الفضاء الخارجي.

ولهذه الحديقة معنى خاص في نفوسنا فهي تتوسط المدينة وهي جيدة ولكن كل ذلك لم يجعل لها ذلك المعنى الخاص وإنما جعلها كذلك عندنا هو أنه يؤسس الآن في أرض مقابلة لها مسجد كبير سيكون معلماً من معالم المدينة، وقد ساعدت بلدية المدينة على عمارته بمبلغ

خمسمائة مليون روبل، إضافة إلى منحها الأرض لجمعية المسجد بالمجان وهو في أرض تعتبر قلب المدينة. كما تبرعت حكومة الولاية بمليار روبل للمسجد، وهذا كله مجاملة للمسلمين وليظهروا شعور التآخي والتآلف مع المسلمين الذين كانوا هم أهل البلاد الأصلاء قبل الغزو لهذه المنطقة.

وكذلك قال لنا المفتي الشيخ واعظ بن لطف الله: إن المسجد هو في أحسن مكان من المدينة.

لم نقف عند أرض المسجد لأن لنا عودة إليه بعد ذلك وإنما واصلنا سيرنا داخل المدينة ونحن ذاهبون إلى دار الفتوى فيها. فدخلنا مع شارع عليه الأشجار من الجانبين صفين وليس صفاً واحداً وقد جعل غارسو الأشجار بعضها يخالف بعضاً في موضع غرسه فصارت بحيث يخيل إليك أنها حديقة متصلة، لأن الأشجار قد حجبت البيوت والأبنية عن عينك، ولا شك أن ذلك بسبب الإزدهار الذي تشهده الأشجار في هذا الوقت الربيعي عندهم. وإلا فإنها تكون في الخريف والشتاء مجرد أخشاب وعيدان رمادية هامدة.

ومن الغريب أننا رأينا غير بعيد منه مدخنة لأحد المصانع، وقد جعلنا رؤية مدخنتها العالية نتوهم أنها قريبة جداً.

دار الفتوى:

وصلنا إلى حي يبدو كما لو كان حياً ريفياً، حيث تكثر الأشجار بين البيوت وحولها والبيوت فيه تقليدية وإن كان في بعضها شيء من التجديد.

ثم دخلنا حياً آخر بيوته أكثر تقارباً وأشجاره أكثر التفافاً، وهو الحي الذي فيه الإدارة الدينية. وقد آنستنا منه منارة صغيرة تعلو سقف المسجد الوحيد المفتوح للصلاة في هذه المدينة التي يبلغ عدد المسلمين فيها (٥٠) ألف نسمة من مجموع سكانها الذين قدمت لك أن عددهم يصل إلى مليون ونصف المليون من السكان.



مسجد سمارا

بيت المفتي:

اليوم هو يوم الجمعة ولذلك سوف نغتنم هذه الفرصة ونؤدي الجمعة مع إخوتنا المسلمين فيها فأردنا أن ندخل المسجد لنراه من الداخل فذكر المفتي أننا سنعود إليه بعد ذلك وأدخلنا إلى بيته المجاور للمسجد لا يفصل بينهما إلا أمتار معدودة من الأرض التي بعضها حديقة صغيرة، قد زرعوها بزراعة نافعة منها طماطم قد أثقلتها ثمارها.

وجدنا بيت المفتي جيداً من حيث السعة وفوق ذلك من ناحية النظافة والذوق الرفيع، ووجدنا المائدة منصوبة في غرفة فيها مقاعد وثيرة، وعليها غطاء كبير من اللدائن الخفيفة فكشف عنها غطاءها فوجدنا

عليها الفاكهة المستوردة من التفاح والموز والطماطم الذي يقدمونه في هذه البلاد الشمالية مع الفاكهة ويأكلونه كما يأكلون الفاكهة وذلك لندرته أو عدم وجوده في أكثر السنة عندهم أما في الصيف مثل هذا الوقت الذي نحن فيه فإنه يوجد عندهم بكثرة ورخص ذكروا أنهم يبيعون الكيلو منه بنصف دولار، وأما في غير ذلك من الفصول فإنه يوجد على ندرة مستنبتاً في المزارع المحمية بدولارين إلى ثلاثة للكيلو الواحد.

وعلى المائدة الخبز والفطاير والعسل والسكر والمشمش المجفف جاؤوا به من طشقند وخيار.

أكلنا وبنا حاجة للأكل لأن الطائرة لا تقدم شيئاً من الطعام كما ذكرت، وكنت أتأمل الغرفة ونحن نأكل فأجد فيها خزائن كبيرة فيها مجموعات صنع الشاي وتحف زجاجية، وفي حيطانها صحون معلقة في وسطها لفظ الجلالة (الله) وفي بعضها (محمد) ورسومات للحرم المكي والمسجد النبوي الشريفين.

وقد حضر معنا للمأدبة أخ ظل ملازماً لنا حتى سافرنا وهو صهر المفتي واسمه (عبد الأحد بن فؤاد) يعرف قدراً من العربية تعلمه تعلماً وهو بذلك أكثر معرفة بالعربية من صهره المفتي، ومظهره مظهر الأوروبيين الشماليين فهو أشقر الشعر إلا أنه تتاري أصيل من قرية تتارية اسمها (قزل صو) أي الماء الأحمر، وكثيراً ما يعبرون في لغتهم عن النهر بالماء فيقولون عنه (صو). وإذاً يجوز أن يكون المراد بها النهر الأحمر.

والمفتي الشيخ (واعظ بن لطف الله بن جار الله) هو أيضاً من التتار إلا أنه ليس أشقر، وإنما يبدو في شكله كالسوريين.

ثم جاء الطعام الحار وأوله الحساء الحار الدسم الذي تشتهر به هذه البلاد الشمالية ولا بد منه في أول المائدة في تركستان الشرقية والغربية أيضاً، كما أحضروا طعاماً من كرات من الدقيق الأملس ملفوف على

مقادير قليلة من اللحم المطحون فهو يشبه (المانتو) المعروف عندنا الذي يصنعه البخاريون وليس به. وفطيرة حلوة بالجبن. إلى جانب الخبز.

وعندما جاء الشاي أحضروا مربى الفراولة وعادتهم أن يضعوا في فنجان الشاي ملعقة منه فيكون لذيذ الطعم إلا أننا وضعنا فيه العسل بديلاً من السكر الأبيض. وعسلهم نقي معروف ويكاد يكون الوحيد المتوفر الذي تنتجه بلادهم، مما على المائدة ما عدا اللحم والخبز.

وبعد الانتهاء من الطعام عقدنا جلسة مذاكرة مع المفتي أخرج أثناءها دفتراً فيه اسمي وقال: لقد قابلتك قبل عشر سنوات في (أوفا). ولم أكن أذكر أنني قابلته ولا عرفته قبل اليوم، ولكنني عندما زرت الإتحاد السوفياتي ـ آنذاك ـ كنت على رأس وفد مؤلف من ستة أشخاص. وكان وفدنا أول وفد سعودي يزور تلك البلاد فاحتفت الحكومة السوفياتية بنا على أمل أن يكون في ذلك مفتاح للعلاقات ما بينها وبين المملكة العربية السعودية، وقد كان ذلك بالفعل فيما بعد، ولا أقول بأنه بسبب وفدنا فنحن لم نذهب هناك لهذا الغرض وإن كانت الصحافة الروسية ودوائر الإعلام قد اهتمت غاية الاهتمام بالناحية الإعلامية للوفد وأرسلوا معنا أربعة من رجال الإعلام كانوا يرافقوننا طيلة أيام زيارتنا التي استمرت ١٦ يوماً حتى إنهم نظموا لنا من دون موافقة مسبقة منا مؤتمراً صحفياً ضخماً عند نهاية الزيارة دعوا إليه ممثلي وكالات الإعلام العالمية ومراسلي الصحف.

ومن ذلك الاهتمام أننا عندما وصلنا مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية باشقردزستان جمع رئيس الإدارة الدينية في ذلك الوقت الشيخ طلعت تاج الدين، وهو رئيس الإدارة الدينية في القسم الأوروبي وسيبيريا جميع أئمة المساجد من سيبيريا وشرقي أوروبا السوفياتي وعددهم كبير فاجتمعوا بنا في مناسبات عدة ومنها حفلة عشاء ضخمة في بيته. حيث كنت أتكلم في الاجتماعات وأرد على كلمات مضيفينا، لذلك عرفني كثير من أئمة

المساجد هناك من دون أن أعرفهم ومنهم المفتي الشيخ واعظ هذا جزاه الله خيراً، وذلك في عام ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

جمعة سمارا:

لبس الشيخ المفتي قميصاً عربياً طويلاً كالذي نلبسه في بلادنا ووضع على رأسه قلنسوة ثم تطيب بطيب قال إنه من مكة المكرمة وهو من دهن العنبر معه أخلاط من طيب آخر، ثم قال: هيا للصلاة، وهذا من طريف الأمر أن تكون عليه الملابس العربية ونحن نلبس الملابس العالمية. إذ كنا نلبسها في هذه البلاد من أجل الأمن وعدم لفت الأنظار.



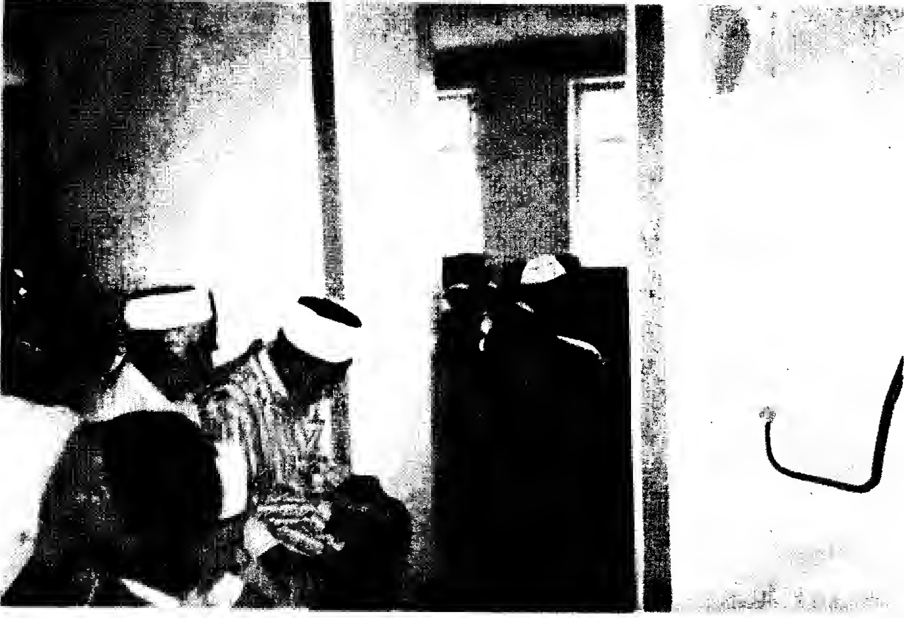
بعض المصلين في مسجد سمارا يتنفلون

خرجنا مع المفتي من بيته المجاور للمسجد فمررنا بحديقة صغيرة تقع إلى الشرق من المسجد وهي خاصة بالمسجد، إذ هي داخل سوره. ثم دخلنا المسجد من دهليز ليس له نوافذ أفضى إلى غرفة فيها جماعة من الشيوخ كبار السن من المسلمين فسلمنا عليهم دون أن نقف، وتجاوزناهم إلى أن وصلنا إلى غرفة أخرى قد اجتمع فيها اثنا عشر شخصاً من كبار المسلمين ووجهائهم.

تكلم معهم المفتي فقدمني إليهم وذكر وفدنا وأنني سوف ألقي كلمة في المسلمين المصلين في المسجد. ثم صعدنا إلى المسجد الذي رأيناهم قد قسموه أقساماً كما هي العادة في أكثر المساجد في هذه البلاد ومن ذلك أشهر جامع وأكبره في مدينة قازان واسمه جامع المرجانية. فذلك المسجد مقسوم إلى ثلاثة أقسام بالطول بمعنى أنك تدخل إليه فتجد قسماً منه كأنه مسجد بمفرده فتدخل منه إلى باب لتصل إلى قسم آخر وهكذا القسم الثالث الذي فيه المحراب.

أما هذا المسجد فإنه مقسوم إلى ٣ أقسام بالعرض وقسمين بالطول وكله مليء بالمصلين، مما لم أر له مثيلاً منذ وقت إذ آخر جمعة أدركنا في هذه الرحلة وهي أول جمعة كانت في مسجد السفارة السعودية في موسكو، وقد صليت الجمعة بالموجودين إماماً وألقيت فيهم الخطبة.

وجدنا الأخ عبد الواحد بن فؤاد جالساً أمام مكبر للصوت يعظ القوم بلغتهم. وقد استمر كذلك فترة، ثم تقدم الإمام وأخذ مكبر الصوت وكان يجلس بجانبنا في روضة المسجد وهي الصف الأول مما يلي الإمام فقدمنا إلى القوم وذكر أسماءنا وأنني سألقي بكلمة، فيهم يترجمها إلى التتارية لغتهم الأستاذ رحمة الله بن عناية الله، وذلك لكونهم لا يوجد فيهم من يجيد العربية حتى يستطيع أن يترجم كلامي للغتهم.



شيوخ يصلون على كراس في مسجد سمارا

وقد ألقيت فيهم كلمة تضمنت نقل تحيات إخوانهم في بلاد الحرمين الشريفين وعلى رأسهم خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود وفقه الله، وقلت لهم: لقد قدمنا من رابطة العالم الإسلامي التي يقع مقرها بجوار الكعبة المشرفة، وتضم مجالسها ممثلين لسائر المسلمين من أنحاء العالم.

وتكلمت على مسائل عديدة منها أن الإسلام ليس دين العرب وحدهم بل هو دين الله الذي من التزم به سعد ونجا سواء أكان عربياً أم غير عربي، ومن تولى عنه شقي وضل سواء أكان عربياً أم غير عربي. ولذلك كان من كبار صحابة رسول الله ﷺ بلال الحبشي من أفريقيا،

وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي. وقد خاطب الله الناس في القرآن بقوله: يا أيها المؤمنون، ويا أيها الكافرون. ولم يقل: يا أيها العرب، ويا أيها العجم. وذلك أن الإسلام دين إنساني عالمي وليس عنصرياً، وقد شرف الله العرب حينما بعث أفضل الأنبياء وخاتمهم محمداً بن عبد الله ﷺ منهم فقام صحابته الكرام بالأخذ بالإسلام. ونشروه فهدى الله بهم قوماً ضلالاً، وفتح به عيوناً عمياً. ثم تسلم الراية بعدهم من وفقه الله من المسلمين من عرب ومن غير عرب للجهاد في سبيله وإبلاغ دعوته إلى الآخرين.

وقد قرأنا في كتبنا العربية تاريخ أسلافكم التتار الأمجاد في نشر الإسلام في هذه الأصقاع وفي الأخذ به والمحافظة على ذلك ومن أهم مظاهر ذلك أننا رأيناكم كما رأينا المسلمين هنا لا تزالون متمسكين بدينكم الإسلامي الحنيف، رغم المحن والمصاعب بل المصائب التي ابتلي بها المسلمون تحت حكم الشيوعيين الملحدين.

والآن وقد زال ذلك الحكم، وصار بإمكانكم مثل بقية الشعب الروسي أن تمارسوا شعائر دينكم بحرية فإنه أولى بكم أن تجتهدوا في ذلك ومن أهم المهمات وأوجب الواجبات تربية الأولاد تربية إسلامية حتى يصيروا أنصاراً للحق كما كان أجدادكم. وحتى يعود لهذه البلاد مجدها العلمي الذي كان متمثلاً في علمائها وفقهائها في الدين، الذين تقلص عددهم حتى كادوا يعدمون من الوجود.

وقُلت لهم: إن الإسلام دين خير للجميع من مسلمين وغير مسلمين، لذلك يجب على المسلم أن يتعاون مع إخوانه في الوطن على ما فيه المصلحة العامة للوطن، مثل صيانة المؤسسات العامة من طرق ومستشفيات وغيرها، بل يجب على المسلمين أن يسعوا فيفتحون المستشفيات والمدارس للمسلمين وغير المسلمين إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، فقد رأيت في بعض بلاد الأقليات المسلمة في العالم أن المسلمين



وفد الرابطة في مسجد سمارا قبل صلاة الجمعة

فتحوا مدارس إسلامية لأولادهم يعلمونهم فيها ما يلزمهم من أمور دينهم إلى جانب المنهج الحكومي العام الذي لا يتنافى مع ما أمر به الدين، وسمحوا لأبناء غير المسلمين بالدخول في هذه المدارس لكي يحصلوا على معونات مالية من الحكومة فكان أن صار بعضهم يتعلم مبادىء الدين الإسلامي ويصلي مع أبناء المسلمين.

كما يجب عليكم أن تعلموا أن الإسلام ليس دين عبادات فحسب فالعبادات مهمة، بل هي أركان الإسلام مثل الصلاة والزكاة والحج والصيام ولكن هناك أيضاً المعاملات التي جاء بها الإسلام من الصدق والعدل وعدم الغش، وعدم إيذاء الجار سواء أكان جاراً مسلماً أم غير

مسلم. فيجب عليكم أن تلتزموا بأن تكون معاملاتكم طبقاً لما أمر الله به ورسوله، وإذا أشكل عليكم شيء من ذلك أمكنكم أن تسألوا عنه المفتي وغيره من أهل العلم لأن الله تعالى يقول: «فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون».

وهنا تقدم شيخ منهم وقصد المحراب الذي كنت فيه فخفت من أن يكون في ذلك شيء من الشغب، وانفلات النظام، ولكن تبين أن الأمر غير ذلك وإنه قال: إننا لا نسمع بوضوح فيجب أن تعيدوا علينا ما قال الشيخ. وقد استجاب المفتي إلى طلبه فأعاد ما قلته مختصراً بلغتهم ولا أدري الحامل له على ذلك أكونه بالفعل لا يسمع المكبر بوضوح أم أن لغة مرافقنا الأستاذ رحمة الله التتارية لا تطابق اللهجة التي يفهمها هذا الشيخ وأمثاله.

بعد أن انتهيت من كلمتي وأنهى المفتي ما أراد من إعادتها عليهم نهض المؤذن فأذن الأذان الأول من مكبر الصوت داخل المسجد أذاناً معتاداً نهض القوم بعد أن فرغ منه فصلوا نافلة أربع ركعات في تسليمتين لم يخل أحد منهم بذلك مثلما يفعل الأتراك في مثل هذه النوافل.

أما نحن فقد صلى كل منا ركعتين ثم جلس، وبعد أداء هذه النافلة أدى المؤذن الأذان الثاني من مكبر للصوت من داخل المسجد أيضاً نهض بعده المفتي الشيخ واعظ الذي هو هنا أيضاً واعظ فاجتمع في اسمه هنا الوصف والعلمية ـ بفتح العين واللام ـ.

وقد خطب المفتي بالعربية خطبتين قصيرتين صار يمد في ألفاظهما، ويحسن ذلك بصوته وإن كان يدغم الحروف بعضها ببعض في بعض الأماكن، لأن خطبته بالعربية هي شكلية قصد بها أن تستكمل صلاته شروط الجمعة وأن يكون لها خطبة أو خطبتان، وإلا فإنه لا أحد من القوم يفهم ما يقول، لذلك كان اعتمد على أن يزين اللفظ ما استطاع بصوته، دون النظر إلى أي اعتبار آخر مثلما يفعل أمثاله في هذه البلاد وغيرها من بلاد الأعاجم.

أما الموعظة التي يطلب أن تتضمنها خطبة الجمعة فإنهم يلقونها قبل الأذان بلغتهم التي يفهمونها وتتضمن ما يريد الإمام أن يقوله، وهي في كثير من الأحيان، تكون تفسيراً لآيات قرآنية وأحاديث عربية. وأما خطبة الجمعة هذه فإن الشيخ قرأها من كتاب قديم وربما كان حذف بعضها من قراءته لأن الخطبتين قصيرتان جداً ولا أشك في أنه لا يفهم أكثر ما فيهما.

وأنا هنا لا ألومه لأنه وأمثاله ممن كانوا يعيشون تحت حكم الحادي شيوعي حرم التعليم الديني، وهدم المساجد أو صادرها فنشأوا لا يستطيعون التعلم بعد أن كانت لهم مدارسهم وفيهم علماؤهم الأجلاء وكانوا يبعثون أبناءهم إلى البلدان العربية لتحصيل العربية، والتفقه في الدين.

ثم أقيمت الصلاة وإقامتهم كإقامة الحنفية الذين منهم المسلمون في هذه البلاد تكون كالأذان إلا أن التكبيرات فيها اثنتين اثنتين، وليست أربعاً في أولها وإلا جملة قد قامت الصلاة مرتين. ودخل الإمام المفتي في الصلاة قبل أن يفرغ المقيم كلية من الإقامة. وكان أشار إليَّ قبل ذلك أن أتقدم فأصلي بهم فاعتذرت جرياً على عادة لي في هذا الأمر.

قرأ المفتي في صلاة الجمعة سورتين قصيرتين قراءة جيدة متقنة.

وبعد انتهاء الصلاة نهض الجميع فوراً للتنفل فصلى كل واحد منهم أربع تسليمات فيها ثمان ركعات. أخذ الأخ عبد الأحد بن فؤاد بعدها بالتسبيح والتكبير، فقال: سبحان الله وسكت فترة ثم قال: الحمد لله. ثم لا إله إلا الله، ثم الله أكبر، هكذا.

وهم يسكتون بين الجمل سكتة غير قصيرة ربما كان معناها أنهم يكررون الجملة إحدى عشرة مرة فيكون مجموعها ثلاثاً وثلاثين أو أربعاً وأربعين.

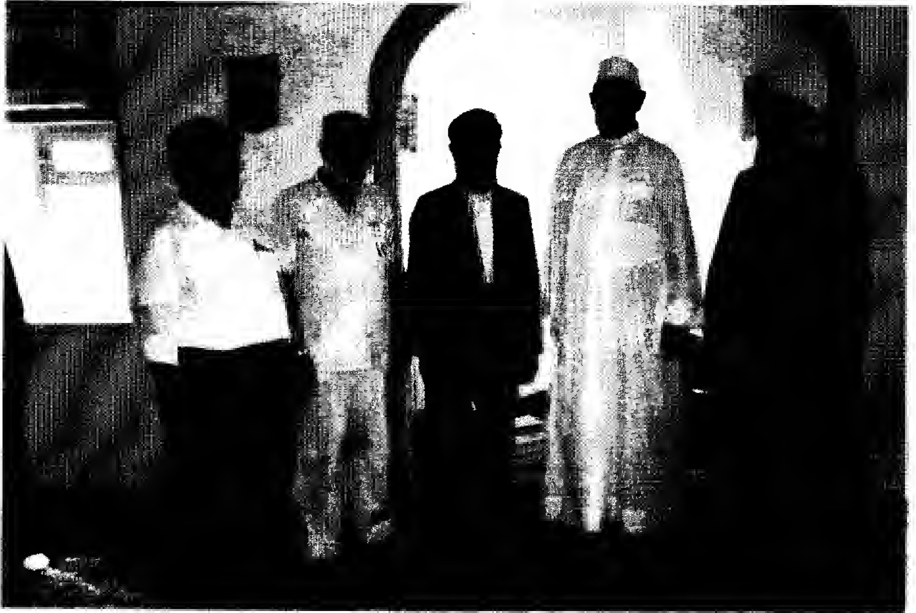
ثم أعقب ذلك بدعاء لم نسمع منه شيئاً وإنما كان القوم يؤمنون عليه

بصوت منخفض وهم لا يدرون ما هو لأنه لم يتلفظ به. ونحن أيضاً لا ندري ما هو، إلا أن الجميع يعرفون أنه دعاء.

وبعده أخذ الإمام المفتي بالدعاء، ثم انتقل الأمر إلى نائبه الأخ عبد الواحد ونسيت أن أذكر في أول الأمر أنه نائب المفتي، إلى جانب كونه صهره. فتلا تلاوة قرآنية جيدة بصوت عالٍ.

ثم عاد المفتي بعد الانتهاء من تلاوة القرآن الكريم إلى الدعاء مرتين.

وبهذا انتهت مراسم الصلاة التي عيبها أي هذه المراسم أن بعض الجهال قد يحسبها كالصلاة واجبة لأنهم لا يخلون بها. والواجب على علمائهم أن يبينوا للناس أن الفريضة هي الصلاة نفسها وأن الباقي نفل وقربات من الله، يجوز الأخذ به، كما يجوز تركه.



داخل مسجد سمارا وفد الرابطة مع المفتي ونائبه

بعد ذلك نهض جميع من في المسجد وجاؤوا ليسلموا على الإمام المفتي وضيوفه، فصفوا صفاً طويلاً متعرجاً والذين انقطع بهم الصف انتظروا حتى وجدوا مكاناً في آخره. فصاروا يسلمون ويصافحون مصافحة خفيفة ثم ينصرفون إلى أن أكمل كل من في المسجد السلام والمصافحة.

ومن المفرح أن أربعة من إخوتنا الطلاب المغاربة صلوا معهم صلاة الجمعة وأخبرني الإمام أن بعض الطلبة العرب يصلون معهم، وقد سألتهم عن عدد الطلاب العرب في المدينة؟ فأجابوا: إنه مائة، فقلت: إن أربعة من مائة قليل، فلم لا يدعون زملاءهم لصلاة الجمعة مع إخوتهم المسلمين في هذه البلاد؟ وذكر الإخوة الطلاب المغاربة وكلهم من المملكة المغربية أنهم يدرسون في المدينة منذ سنتين، وأنهم اختاروها على موسكو، وأنهم لا يلاقون فيها أية مشكلات من جهة الدراسة، حتى الجو البارد ذكروا أنهم اعتادوا عليه.

تاريخ المسجد:

بعد الصلاة جلسنا في المسجد الذي بدا لي واسعاً من الداخل أكثر من منظره من الخارج.

ولم يعرفوا تاريخه وإنما ذكروا أنه بني عام ١٩٦٧م ووسع في عام ١٩٨٥م. والمفتي هو إمام المسجد منذ ١٢ سنة.

ولما لم يعرفوا تاريخ المسجد ذكروا تاريخ إنشاء المدينة وأن ذلك كان قبل ٤٠٠ سنة.

وأكدوا على أن المسجد العظيم بمعناه الذي سيكون رمزاً للوجود الإسلامي في المدينة هو ذلك الذي يبنى الآن في قلب المدينة. وسوف نراه فيما بعد.

العودة إلى بيت المفتي:

عدنا من المسجد إلى بيت المفتي الذي تركناه قبل الصلاة فمررنا

بالحديقة الصغيرة الضيقة التابعة للمسجد ورأينا فيها شجيرات من الطماطم مثمرة، فسألت الإمام عما إذا كانت الطماطم التي أكلنا منها من قبل من هذه الحديقة؟ فأجاب: لا، إنها مستوردة من (استراخان).

عندما دخلنا ثانيةً إلى البيت وجدنا المائدة فيه مجددة ومغطاة بذلك الغطاء الضافي من اللدائن وأحضر الشاي الساخن وفطائر وبطاطس سليقة حارة، فشربنا الشاي المحلى بالعسل، وبشيء من مربى الفراولة. وقد حضر المأدبة أحد الإخوة من أهل البلاد واسمه (ذو الفه بن ظفر) ذكروا أن (ذو الفه) محرفة أصلها: (ذو الفتح) ويعمل بالتجارة.

حديث المسلمين في الإقليم:

جرى حديث عن المسلمين في هذه المنطقة مع الإمام المفتي ونائبه الأخ عبد الواحد والتاجر (ذو الفه بن ظفر) فكان أول ما سألتهم عن عدد المسلمين، أهم يزيدون الآن؟ فذكروا أنهم يزيدون زيادة قليلة بالولادة. هذا خلاف ما كنا سمعناه من قبل من كون المسلمين التتار لا يتزايدون كثيراً بالولادة.

قالوا: وأما الذين يدخلون في الإسلام من غير المسلمين فإن عددهم قليل ولا يعرفون إلا ثلاثة. ثم أجمعوا على أن مصيبة المصائب أن المسلمين في هذه البلاد هم مسلمون بالاسم فليست لديهم ثقافة إسلامية، ولا يلتزمون بالإسلام التزاماً صحيحاً.

وكنت لاحظت أن معظم الذين أدوا صلاة الجمعة معنا هم من الشيوخ والكبار في السن وليس بينهم من الشبان إلا عدد قليل جداً حتى إن عدداً منهم كانوا يصلون على كراسٍ موضوعة بين الصفوف في المسجد، وذلك لعجزهم عن الركوع والسجود كما هو الشائع في هذه البلدان الشمالية حيث تكثر أمراض النقرس والمفاصل، لا سيما مفاصل الرجلين. ولذلك لا يخلو مسجد من مساجدهم من كراسٍ يصلي عليها الذين يعجزون عن ثني أرجلهم أو ظهورهم للركوع والسجود.

ومع ذلك فإن العدد الذي صلى معنا كان كبيراً أظن أنه لا يقل عن (٣٠٠) إلى (٣٥٠) مصلياً.

وكثير من المصلين تذكرني مناظرهم بشيوخ من شيوخ البخاريين في بلادنا، رغم بعد بلادهم عن بخارى فهؤلاء بلادهم ذاهبة إلى الشمال، ويكفي أن تعرف أن السهوب التي كانت تعرف قديماً بدشت قفجاق، ثم عرفت بدشت قازاق تفصل بين البلدين إضافة إلى إقليم بخارى الذي يقع إلى الجنوب من الدشت المذكور.

وهؤلاء معتبرون الآن من التتار ولم يكونوا كذلك في القديم، وإنما كانت غالبيتهم تسمى (البلغار) أو ترجع إلى أصول بلغارية.



الشارع الذي يقع عليه بيت المفتي في سمارا

والبلغار هم سكنة أعالي نهر (ايدل) الذي يسمى عند أسلافنا العرب (ايتل) وهو الفولقا كما يعرف الآن. وكانوا أسلموا طوعاً واختياراً في أول القرن الرابع الهجري، وأرسل ملكهم إلى الخليفة المقتدر بالله العباسي طالباً أن يرسل إليه وفداً فيه من يعلمهم أمر دينهم. وفيه من يبني للملك قصراً يتحصن فيه من أعدائه، وذلك أن بيوتهم كانت من الخشب فيسهل تدميرها وإحراقها، ويصعب عليهم الدفاع عنها. فأرسل الخليفة ذلك الوفد الذي قيل إن فيه أحد قضاة بغداد وكان فيه الكاتب ابن فضلان الذي سجل ما رآه في رحلته في كتاب عرف فيما بعد برسالة ابن فضلان، وذكر فيه من أحوال البلغار في ذلك التاريخ ما لم يذكره غيره.

ثم تغلب التتار الذي هم المغول في الأصل على البلاد الشمالية وكان أولهم السلطان بركة خان بن جوجي بن جنكيز خان الذي أسلم فأسلم قومه، ثم تتابع بعده ملوك التتار المسلمون وصاروا يغزون الروس ويتغلبون عليهم وصارت للمسلمين قواعد وعواصم إسلامية في الشمال منها قازان التي تقع إلى الشرق من موسكو بميل إلى الشمال فهي أقرب إلى منطقة القطب الشمالي من موسكو وامتد نفوذها إلى بلاد الظلمات التي هي المنطقة القطبية الشمالية.

وقد أطلق الروس اسم التتار على جميع رعايا الدولة المسلمة المسماة (التون أورده) أي القبيلة الذهبية وقد حكمت جزءاً من شرق أوروبا وأكثر بلاد روسيا الأصيلة وكان أصلها دولة التتار أطلقوا عليها ورعاياها اسم التتار ولم يعرف تاريخ ذلك الإطلاق بالضبط، إلا أن الشيخ المفتى (واعظ) قال لي في هذه الجلسة: نحن من البلغار ولكن الروس أطلقوا علينا اسم التتار لأول مرة في عام ١٥٥٠م.

والعجيب أن اسم التتار شمل أناساً في أماكن متباعدة مثل بولندا وبلاد البلطيق ومثل بلاد القرم، حيث أسموهم تتار القرم مع أنهم لا يمتون بصلة نسب إلى تتار قازان الذين يسكنون الآن في جمهورية تتارستان، إضافة إلى فريق آخر منهم يسكن في (استراخان) سيأتي الكلام عليهم عندما نصل إلى هناك بإذن الله.

ولقد زرت بلاد التتار الأصيلة التي هي بلاد المغول سواء منها منغوليا الداخلية التي هي الآن مقاطعة صينية، وجمهورية منغوليا فرأيت أن المغول الذين هم التتار أو أن التتار منهم لا يشبهون هؤلاء الإخوة المسلمين المسمين الآن بالتتار، لا من حيث اللون ولا من حيث المظهر ولا تقاسيم الوجوه.

وقد قال لي بعض المسلمين التتاريين هنا: إن الروس أطلقوا علينا هذا الاسم من باب التشنيع لما أثر عن التتار المغوليين قبل إسلامهم من القسوة والغلظة والشدة وعدم التمدن.

أما التتار عند مؤرخينا المسلمين فإنهم من المغول، وبعضهم قال إنهم بادية المغول.

نعود إلى حديث الإخوة هؤلاء عن المسلمين في هذا الإقليم، فنقول: إنهم أخبرونا أنهم قد افتتحوا في هذا الإقليم مدرسة تتارية تلتزم بالمنهج الحكومي في المواد العلمية وتدرس إلى ذلك بعض المواد الإسلامية ومبادىء القراءة العربية.

وقد انتهزت هذه الفرصة فأخبرتهم بما هو موجود في كتبنا عن الأمجاد العظيمة لمسلمي هذه البلاد والماضي الحضاري المشرق الذي كانوا يعيشونه، والعزة والرفعة التي كانوا عليها حتى إن الروس كانوا يؤدون لهم الإتاوة وحتى كان الكيناز وهو الحاكم الروسي الكبير لا يعتبر الروس ولايته صحيحة إلا إذا وافق عليها سلطان المسلمين الذي يسكن في قازان.

فعجبوا من ذلك وقالوا: لقد حجب الشيوعيون عنا تاريخنا هذا المجيد، ولم يكونوا يدرسوننا إلا تاريخهم والحديث عما سموه أمجاداً إشتراكية وديمقراطية جلبوها لأهل هذه البلاد لا يتمتع بها غيرهم.

إلى المسجد العظيم:

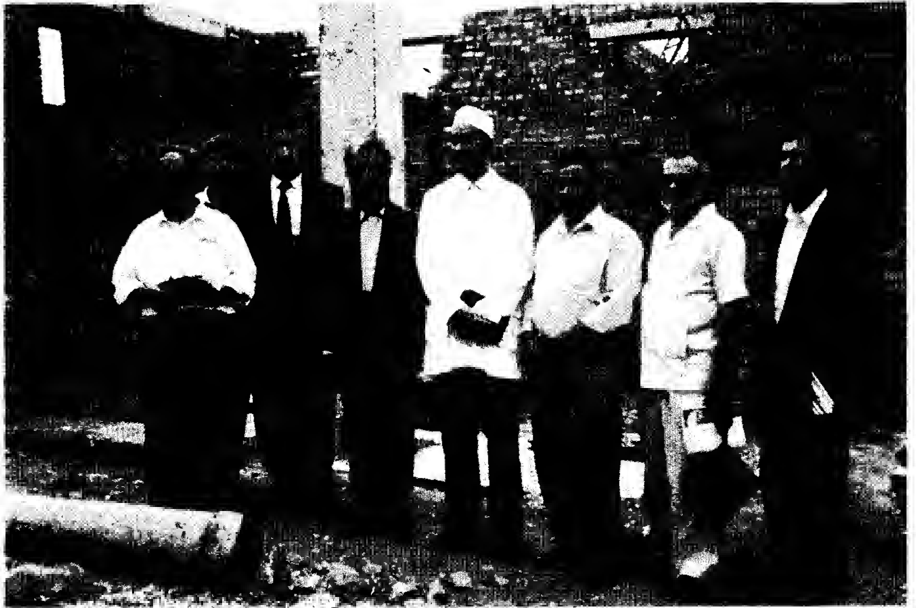
وربما قلنا إذا أردنا الدقة اللفظية: إلى مشروع المسجد العظيم، لأنه لم يكتمل بعد.

غادرنا الإدارة الدينية في حي (برو متشلتو سيتي) الذي يقع المسجد

على شارعه المسمى بهذا الاسم، ويرى المرء إلى الجنوب منه مداخن عديدة من مداخن المصانع قاصدين قلب المدينة الفاخر لرؤية المسجد الذي يجري بناؤه الآن.

وقفنا عنده في قلب المدينة الجديد أمام حديقة (قاقارين) فاستقبلنا فيه الأخ (راوول ياغورين) المشرف على المسجد وهو من المسلمين المتحمسين رغم اسمه غير المألوف للمسلمين، وقال مثلما قال الإمام من قبل: أنتم أول وفد إسلامي يصل إلى إقليمنا من خارج روسيا.

ووجدنا معه عند المسجد عدداً من الإخوة المسلمين الذين لهم علاقة ببناء المسجد منهم المهندس المعماري المشرف على المسجد من الناحية الفنية المعمارية واسمه (إسماعيل بدر الدين أوغلو) والمشرف من قبل البلدية الأخ المهندس (رينات سليمان أوغلا).



صورة تذكارية داخل المبنى للجامع الجديد في سمارا مع المفتي ونائبه واثنين من المشرفين على بناء الجامع

ويقع المسجد في الحي الفاخر الذي اسمه (ستاري زاقوره).

وجدنا المسجد كما ذكروه يقام باهتمام من كبار المسؤولين في حكومة الولاية فهم ـ كما قال لنا المفتي ـ يحترمون المسلمين ويقدرونهم ولذلك منحتهم الحكومة هذه الأرض في هذا المكان الممتاز من المدينة وساعدتهم حكومة الإقليم وهي حكومة إدارية محلية ببليون روبل، والدولار يصرف الآن بأربعة آلاف وخمسمائة روبل، وكذلك منحتهم السلطة الإدارية في مدينة سمارا العاصمة (٥٠٠) مليون روبل.

وقد نوه المسلمون بذكر نائب رئيس المحافظة بمعنى نائب رئيس الجمهورية أو الحكومة الإقليمية وهو حبيب الله بن رمضان من التتار المسلمين، وقالوا: إنه يساعدنا، وإنه قد انتخب لهذا المنصب من الأغلبية الروسية.

مع العلم بأن نسبة المسلمين في العاصمة (سمارا) هي قليلة لا تصل إلى ٤٪ من مجموع السكان الذين عددهم مليون ونصف نسمة.

أما في القرى خارج العاصمة فإن عدد المسلمين أكثر.

وجدنا أرض المسجد واسعة، وقد أقاموا أعمدة المسجد حتى السقف ولكنهم لم يسقفوه كما بنوا أسواره، وكل بنائه بالإسمنت المسلح القوي من (خرسانة) جاهزة الصنع، وأما حيطانه فإنها من الآجر الأحمر الجميل. ولما رأيناه بهذه السعة حوله معدات وأدوات ضخمة من أدوات البناء، وكل شيء فيه يعمل بالرافعات تبينا الفرق بينه وبين المساجد التي تبنيها الجمعيات الإسلامية الخاصة، فهذا ـ كما قالوا ـ هو على مستوى الدولة. وقد صمموه ليكون على طراز المساجد الكبيرة التي كانت تبنى في هذه البلاد إبان عز المسلمين قبل الشيوعية.

وقد جعلوه طابقين الأسفل منهما مكاتب وحمامات ومصلى للنساء والأعلى هو المصلى الرئيسي وهو مخطط لكي يتسع لألف مصل رسموا ذلك على خارطة المسجد.

ورأينا سيارة طويلة ضخمة تحمل أنابيب ضخمة من الحديد للمسجد.

وعندما أبدينا إعجابنا بقوة المسجد وسعته حتى إنهم خصصوا باحات مكشوفة لوقوف سيارات المصلين الذي ينتظر أن يزيد عددهم قالوا: سوف ندعو الملك فهد لافتتاحه.

فقلت: لا شك في أنه يسره أن يتلقى دعوة منكم لهذا الغرض لأن إنشاء هذا المسجد العظيم في هذه العاصمة الإقليمية من جمهورية روسيا الإتحادية أمر مفرح وإذا كانت ظروف خادم الحرمين الشريفين أو برنامجه لا يسمح بحضوره فإنه يمكن أن يرسل من يمثله في حفلة إفتتاح المسجد.

ثم ذكروا أن النفقات المقدّرة له منذ أول إنشائه حتى نهايته تقدر باثنى عشر مليار روبل، وأنهم أنفقوا ما عندهم الآن ويحتاجون إلى المساعدة لكيلا يقف العمل فيه. وذكروا أنهم قد اتصلوا بالسفير السعودي في موسكو الدكتور عبد العزيز خوجة وأخبروه بحاجتهم للمساعدة وأشاروا إلى الأنابيب الضخمة التي تحملها السيارة الضخمة فذكروا أنهم قد استدانوا قيمتها وهي تعادل خمسة آلاف دولار.

وقد أخبرتهم أننا قوم مسافرون وأننا لا نحمل مبالغ ذات بال ولكننا مع ذلك سوف نقدم لهم إسهاماً رمزياً عاجلاً في نفقات المسجد هو خمسة آلاف دولار من رابطة العالم الإسلامي، وقد شكروا ذلك.

وغادرنا مبنى المسجد قاصدين فندقاً كان المفتي قد حجز لنا فيه أجنحة اسمه (سنترالني) ويقع في قلب المدينة القديم.

وفي الذهاب إليه من موقع المسجد الذي يعتبر في قلب المدينة الحديث إلى موقعه في قلب المدينة القديم اخترقنا مناطق من المدينة التي بدت لنا أكبر مما كنا نتخيل وتبين أنها بالفعل أفخر المدن التي مررنا بها في روسيا بعد (سان بطرسبورج) التي كانت تسمى لينين غراد.



مع المفتي في القسم القديم من سمارا

وقلبها القديم ذو منازل متلاصقة، ومعظم الأبنية فيه قديمة من قبل الحكم الشيوعي ومن مظاهر العناية بها أننا رأينا أحد شوارعه قد غرست فيه زهور بين الرصيف والبيوت. وتكثر خطوط القطار الكهربائي القصير (الترمواي) فيه، وتكثر إشارات المرور الضوئية داخل هذا القلب القديم من المدينة إلى درجة مملة، لأنه ليست فيه جسور ولا أنفاق.

وإلا فإن الشوارع فيه واسعة. ووصلنا إلى حديقة واسعة ظليلة فيه، وعندها محطة من محطات الحافلات حافلة بالناس، وتمنيت لو استطعت التقاط صور لهم من دون أن يشعروا، ولكن ذلك فيه صعوبة إضافة إلى حاجتنا للوقت.

ثم تكررت رؤية الواقفين بكثرة عند الحافلات ووسائط النقل، ومنها (الترامواي) وقال الإخوة: ذلك بأن موعد خروج الموظفين من أعمالهم هو الرابعة والنصف، ونحن الآن قبيل الخامسة.

وصلنا الفندق الذي لم يكن مظهره الخارجي بذاك لقدمه، ولكن داخله جيد جداً، ومنظم. وأهم ذلك أنه استقبلتنا فيه ومعنا المفتي ونائبه أخت مسلمة ذات وظيفة كبيرة فيه فأعطتنا مفاتيح الغرف مباشرة، خلاف العادة في الفنادق الروسية التي تقتضي أن يبقى النزيل مدة طويلة قبل الدخول إلى غرفته في تسجيل اسمه وجوازه الذي يتم جميعه يدوياً ببطء شديد، والسبب في هذه السرعة أن الذي كان حجز لنا هو المفتي وهو معروف للجميع ثم أخذت جوازاتنا واسترحنا في أجنحة من الفندق جيدة كأنها هي في عالم آخر غير العالم الروسي الشيوعي السابق فهو مفروش بالسجاد الذي يشبه السجاد العربي المعروف في العراق.

وهو أفخر فندق نزلناه في روسيا بالنسبة إلى مستواه فقد أنزلونا في جناح مؤلف من قاعة استقبال جيدة فيها تلفاز ملون وخزائن ملابس وخزائن خشبية أخرى وفيها مقاعد عديدة نفعتنا عندما اجتمع عندنا المسلمون في آخر عملنا هذه الليلة.

وغرفة النوم وحدها تغلق بباب وفيها سرير عريض لشخصين عليه أغطية حديثة والإضاءة فيها جيدة وعلى النوافذ ستائر من القماش الحديث البرَّاق تحتها قماش شفاف للستر الرقيق. ومع ذلك كانت الأجرة لهذا الجناح كله ١٣٥ ألف روبل أي نحو ٣٠ دولاراً أمريكياً لأن الدولار يصرف بأربعة آلاف وخمسمائة روبل كما تقدم.

جولة في مدينة سمارا:

اسمها التتاري القديم الذي كانت تعرف به قبل استيلاء الروس على المنطقة هو (قوي بش) ومعناه رأس الكبش، لأن (قوي) هي كبش و(بش) رأس، وكلاهما في هذه اللغة التتارية التي هي شقيقة اللغة التركية المحكية

الآن في جمهورية تركيا التي عاصمتها انقره وإن كانت تعتبر بمثابة لغة أخرى.

وقد حرف الروس اسمها فأصبح (كوي بشيف) إلا أنه استبدل أخيراً باسم (سمارا) اسماً للإقليم وللعاصمة هذه، وأصله من اسم النهر الذي بنيت المدينة القديمة على ضفته. وقال لي الأخ نفيع الله من مجلس التنسيق الإسلامي في موسكو: إن هذا الاسم أصله عربي لأن سمارا أصلها بالعربية (ثمار) جمع ثمرة حرفت بالتتارية إلى (سمارا). وأنا لا أحق هذا.



المؤلف في أحد الميادين في مدينة سمارا

غادرنا فندقنا في قلب المدينة في الخامسة والنصف بعد استراحة قصيرة قاصدين الجولة على معالم هذه المدينة المتميزة التي لو لم يكن من تميزها إلا كون الروس يسمونها (موسكو) الثانية، وكونها في القديم دار إسلام قبل أن يستولي عليها الروس من بين ما استولوا عليها من تلك الديار.

ولسنا نقول ذلك لكي نخلص إلا أنها بلدة إسلامية غير روسية في الوقت الحاضر فهذا ما لا نريده لأن سكانها الروس الآن يبلغون ٩٠٪ أو أكثر وإنما نذكر ذلك لنذكر من لا يعرفون التاريخ القديم لهذه المنطقة، بأنها كانت منطقة إسلامية أو واقعة ضمن نفوذ المسلمين.

ميدان الثورة:

كان أول موقف في ميدان يسمونه ميدان (ريفالوتي) وريفالوتي: الثورة، وهو ميدان جميل حقاً لأنه حول حديقة ومحاط بزهور جميلة، وقد أقاموا فيه تمثالاً ضخماً للينين زعيم الشيوعية الذي أخرج مذهبها إلى حيز التنفيذ في الحكم، وما يزال التمثال قائماً ومعتنى به رغم سقوط الشيوعية، وتخلي الشعب الروسي عنها.

ويمر به شارع مهم رأيت طوائف من الناس واقفين فيه وبعضهم جالسون، وكلهم ينتظر وصول وسيلة من وسائل النقل لإيصالهم إلى الجهة التي يريدونها، وقد تكررت رؤية المنتظرين في محطات الحافلات أو عربات الحبال الكهربائية (الترولِلي باص) أو عربات القطار الكهربائي القصير (الترمواي) في أماكن عديدة من المدينة، رغم كثرة وسائط النقل العام عندهم، بسبب قلة السيارات الخاصة عند عامة الناس.

ومن وجوه هؤلاء الواقفين في المحطات وهم رجال ونساء وأطفال من أعمار مختلفة، يرى المرء مثلي الذي زار روسيا ورأى أهلها في الشمال حتى الدائرة القطبية الشمالية بأن هؤلاء الروس أو لنقل بتعبير أقل دقة الأوروبيين الذين يعيشون في هذه المدينة هم أكثر جمالاً في الوجوه،

وأكثر تناسقاً في الأجسام من الروس الشماليين، وربما صح القول أيضاً بأنهم ألطف أخلاقاً، أو أقل خشونة منهم في تعاملهم مع الأجانب، حتى إن المرء يتخيل في بعض المواطن أنه في بلاد شرق أوروبا وليس في روسيا ذات الطابع السكاني المميز.



الترمواي في سمارا

إلى نهر الفولغا:

وهو نهر إيدل بلغة أهله الأصلاء، وهو عند أسلافنا العرب (ايتل) بالتاء وقد كتبت العنوان باسمه الروسي الذي أصبح عالمياً.

وتقع مدينة (سمارا) على هذا النهر العظيم، ولذلك لا بد من

مشاهدته منها مع أنه سبق لي أن رأيته في أعاليه ومنها أصلاه (آق صو) بمعنى النهر الأبيض، و(قرا صو) بمعنى النهر الأسود، اللذان يؤلفان شبه جزيرة تقع فيها مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشقردزستان، التي تعرف الآن ببشكيريا كما رأيته، بل ركبته في قازان عاصمة جمهورية تتارستان وفوق ذلك كله في الجزء من أعاليه الفاصل بين جمهوريتي الجوفاش و(ماري إل) وقد ذكرت ذلك كله في كتبي في الرحلات عن هذه المنطقة، وهي عدة كتب.

انطلقنا من ميدان الثورة مع شوارع مشجرة، وأرصفة واسعة، إلا أن بعضها قد بعد عهده بالصيانة، حتى أصابه الخراب مع أن الأرصفة في بعض الشوارع جميلة الوضع والتصميم في الأصل. إذْ جعلوا الرصيف قسمين أحدهما أخضر مشجر، وهو الذي يلي الشارع والثاني: رصيف معتاد وهو الذي يلي البيوت.

وليس في هذه الأرصفة، بلاط وإنما هي مرصوصة بما يشبه الإسمنت المخلوط بمادة أخرى قريبة منه.

نهر سمارا:

لا تكاد تفارقنا الأنهار في هذه البلاد الروسية الجنوبية ما بين فحول من الأنهار كنهر (الفولغا) وما دون ذلك، وفي هذه المدينة بالذات رأينا نهر (سرك) ما بين المطار والمدينة وها نحن الآن ونحن ذاهبون لرؤية نهر الفولغا نمر بنهر آخر هو نهر (سمارا) الذي يصب في الفولغا العظيم الذي تصح تسميته بنهر الأنهار لكون معظم أنهار المنطقة تنتهي إليه.

وصلنا بسرعة إلى جسر جيد تتقابل فيه السيارات من دون أن تتزاحم، وفيه طريق منعزل للمشاة في يمينه وشماله، وهو واقع على نهر (سمارا) الذي سميت المدينة على اسمه، والنهر واسع بحيث لو كان يجري في المنطقة وحده لعد من الأنهار الكبيرة، ولكنه ينتهي في نهر الفولغا، وليس بينه وبين أن يصب فيه إلا ٢٥٠ متراً من هذا الجسر.



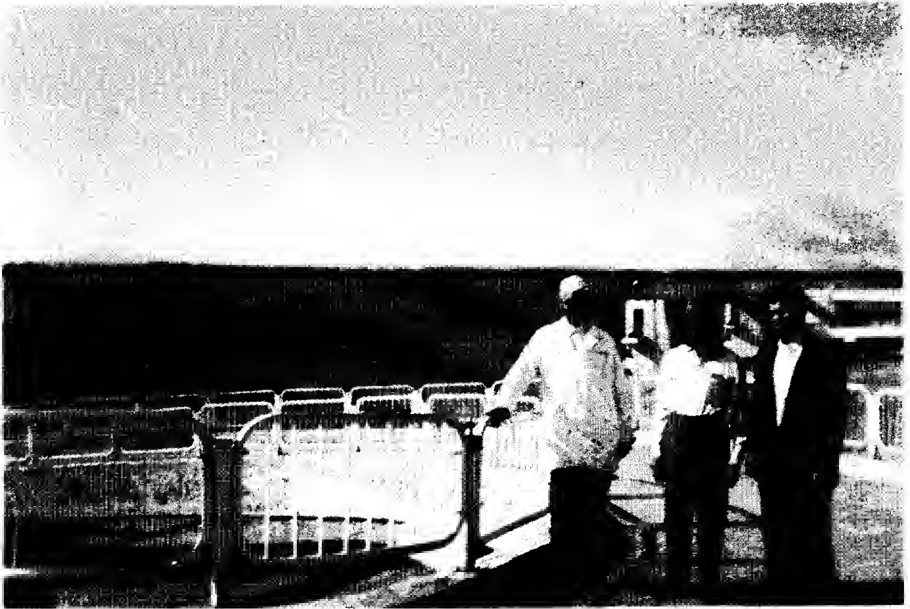
بواخر كبيرة في ميناء الفولغا

التقطنا صوراً تذكارية لهذا النهر الذي لا يكاد أهله يرفعون به رأساً، ولا يسترعي انتباههم وجوده وانطلقنا لمشاهدة النهر العظيم (إيدل)، أو (ايتل) وهو الفولغا فرأيناه كالخور العظيم من البحر فيه السفن راسية في عدة موانيء وفيه السفن تمخر عبابه كما تمخر عباب الخور الواسع، والخور هو ما صرنا نسميه الخليج في الوقت الحاضر وهو اللسان من البحر الداخل في اليابسة، حتى لون مياهه كدر إلا أن كدرته ليست كدرة حمراء كما تكون مياه الأنهار وإنما هي تشبه أن تكون زرقاء وربما يكون ذلك من تأثير انعكاس السماء عليه فالجو صحو الآن.

ووقفنا عند ميناء سمارا على النهر وفيه سفن ذاهبة إلى المدينة التي سنسافر إليها غداً وهي مدينة (استراخان) وقال الإخوة إنها تقطع المسافة

بين المدينتين في سيرها فوق هذا النهر في ٤ أيام والسريعة منها تقطعه في ثلاثة أيام، وما كان بنا استطاعة لتحمل هذا الوقت وإلا فإن مجرد السفر المائي في هذا النهر مما يطمح إليه أمثالي.

وأرجو ألا يظن القارىء الكريم أن تعريف السفر في النهر بأنه السفر المائي جاء من باب تفسير الشيء بمثله للإيضاح من دون أن يكون له مفهوم، وإنما ذلك لكونه ذا مفهوم مخالف صحيح، فالسفر فوق نهر الفولغا يكون مائياً في السفن ويكون برياً على صفحته بالسيارات والمركبات الأخرى إذا تجمد في الشتاء. وذلك أمر معروف في القديم ذكره طائفة من علمائنا وأسلافنا من المؤرخين والرحالة الذين تكلموا على هذا النهر فقد ذكر ابن بطوطة أن السلطان في زمنه إذا جاء الشتاء وجمد ماء هذا النهر أمر بأحمال التبن فنثرت فوقه ثم أمر بالعربات فصارت تسير فيه ويسافر الناس فوقه الأيام والليالي الطويلة.



على شاطيء الفولغا بين المفتي ونائبه

كما رأينا السفن صفوفاً في ميناء مجاور على النهر أيضاً وهي سفن كبيرة ذكروا أنها تسافر إلى بعض القرى القريبة وقال الشيخ المفتي (واعظ بن لطف الله) إنكم لو كنتم تملكون الوقت لسافرنا فوق سفينة من هذه السفن إلى مسافة مائة كيلومتر أو نحوها إلى إحدى القرى ثم عدنا على سفينة أخرى.

وذكروا أن عمق النهر هنا يتراوح ما بين ١٠ أمتار في المتوسط إلى خمسة أمتار إلا أن مجرى السفن الكبيرة هو أعمق من ذلك بكثير.

شجرة العصير:

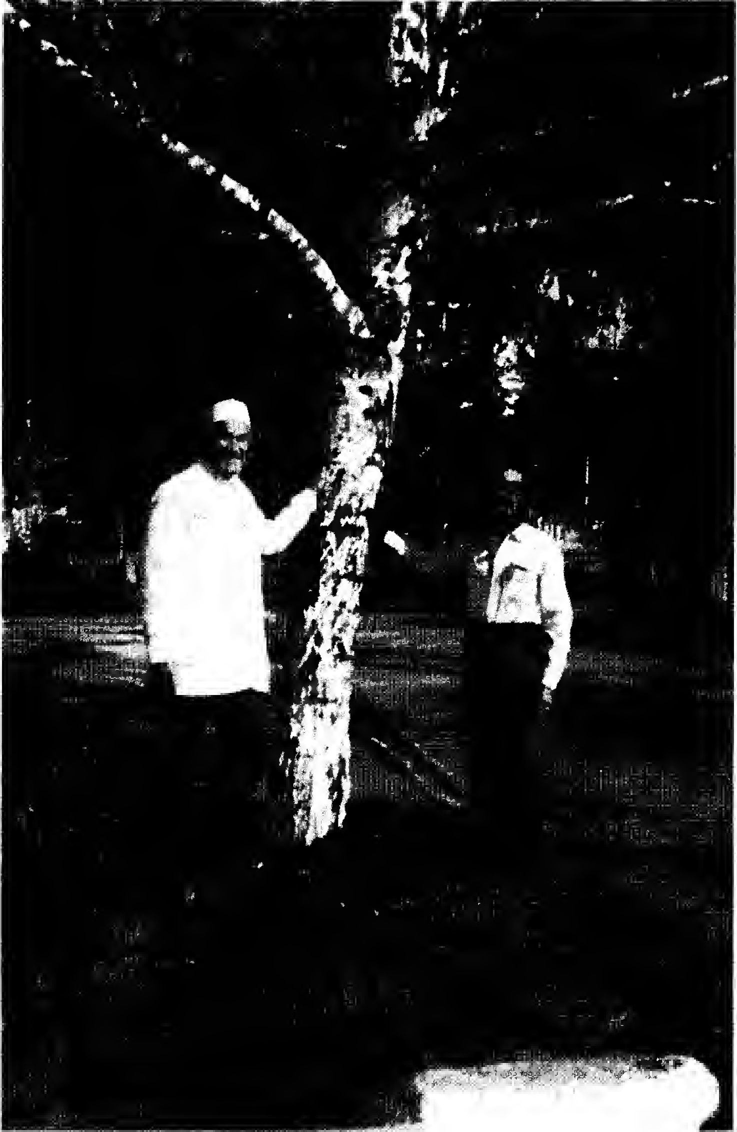
ومن الطريف في هذا الجو المليء بالأمور المستطرفة والمعلومات الجديدة أنني رأيت شجرة العصير التي يسمونها هنا (آق قايين) بمعنى الشجرة البيضاء وقد ذكرها المؤرخون العرب وذكروا أنه يستخرج منها عصير يشرب في فصل الربيع وقد صورتها هنا والتقطت صورة عندها مرة كما فعلت قبل ١٠ سنين عندما كنت في مدينة (أوفا) عاصمة بشكيريا فالتقطت لها هنا الصور وهي هناك أكثر منها هنا. ولا أدري السبب. إلا أن كونها على ضفاف الفولغا في هذه المنطقة، يزيد الصورة شاعرية وطرافة.

شارع الشاطىء:

جملوا شارع الشاطىء الذي تسميه العامة عندنا بالكورنيش ويقصدون به الشارع الملاصق للبحر أو النهر يماشيه على امتداده، إلا أنه دون ما يجب لهذا الشاطىء الجميل فقد وضعوا في أماكن منه مقاعد خشبية قليلة وزرعوا بعض أماكنه بالأعشاب والزهور.

ولم أر فيه من المتنزهين إلا قليلاً بعضهم من الغرباء عن المدينة يبين ذلك في التقاطهم الصور في المواضع الجيدة منه مثلما نفعل نحن، وإلا فإنه مكان ممتاز للتنزه والتفرج برؤية هذا النهر العظيم الذي تمخر

السفن عبابه. وشاطئه مرتفع يشرف على النهر المنخفض نوعاً ما الآن، إذ ينزل إليه على درج إلا أنهم قالوا: إنه يأتي عليه يوم تزيد فيه مياهه حتى تعلو هذه الدرج ويخشى على ما حول ضفته من المدينة رغم ارتفاعها.



مع المفتي عند شجرة العصير بالقرب من نهر الفولغا

وتقع المدينة على الضفة اليمنى من النهر وهي الشرقية الشمالية.

كان الجو صاحياً معتدلاً فهو جو الربيع عندنا وهو عندهم جو الصيف. وأكثر الأشياء التي ترى هنا جميلة، وقد اجتمعت عناصر الجمال الثلاثة وهي الماء والخضرة والوجه الحسن، ولكن لنا برنامجاً لا بد من إنهائه فيما تبقى من بياض هذا اليوم وقد بلغت الساعة الآن السادسة عصراً.

مخبأ ستالين:

غادرنا ميناء سمارا على نهر الفولغا داخلين إلى الجزء القريب من ضفة النهر في المدينة وإن لم يكن واقعاً عليها مباشرة وذلك لرؤية ميدان مهم واسع فيها اسمه (ميدان قوي بيشيف)، وبعضهم يسميه حديقة ميدان (قوي بشيف) وذلك لأنه كان حديقة في الأصل اقتطع منها هذا الميدان الذي هو واسع جداً.

وأهم ما عرف به هذا الميدان هو أنه كان (مخبأ ستالين) إذْ كان يختبىء فيه من غارات الطائرات الألمانية. ومن جنودهم البرية، إبان الحرب العالمية الثانية، فكان له فيه مخبأ محصن معقد تحت الأرض.

وفيه تمثال لأحد الشيوعيين الذين آذوا المسلمين، وقتلوا كثيراً من أفراد الشعب من أجل توطين الشيوعية، ولذلك قال أحد الإخوة المرافقين: إن هذا الرجل الذي وضعوا تمثاله هنا قتل كثيراً من المسلمين.

وقد صار الميدان الآن ملعباً لكرة السلة للصبيان والفتيان فرأيناهم فيه جماعات عديدة.

ويطل عليه مبنى أحمر الطلاء، واسع لم ندخله هو مبنى المسرح الوطني، وكان مكانه كنيسة كبيرة تطل على هذا الميدان فهدموها وبنوا المسرح مكانها.

ميدان جابايف :



في ميدان جابايف مع نائب مفتي سمارا

و(جابايف) الذي أضيف إليه الميدان هو شيوعي روسي متعصب

معروف، وقد مثلوه راكباً على حصان يتبعه طائفة من الثوار بأسلحتهم الخفيفة التي كانوا يحملونها بأيديهم، وهم يسيرون على الأرض. وعلى هذا الميدان بناء على طراز غريب بني على طراز المباني التتارية المطورة وطلي باللون الأحمر المجمل بفواصل بيض. وكان موجوداً قبل أن يستولي الشيوعيون على البلاد، إلا أنهم عندما استولوا على الحكم وضعوا تمثال جابايف والثوار الذين يتبعونه فيه. وحولوا هذا المبنى إلى مسرح.

وقد كتب عليه تاريخ بنائه وهو عام ١٨٨٠م.

مبنى الحكومة المحلية:

عدنا إلى ضفة النهر التي هي جميلة مجملة كما قدمت وذلك لمشاهدة حدائق غناء على الضفة بجانبها مبنى الإدارة المحلية لإقليم (سمارا) الذي أسموه مبنى الحكومة المحلية وهو أبيض الطلاء، واسع مرتفع مع أنه يقع في منطقة مرتفعة من ضفة النهر بينه وبين النهر شارع الشاطىء ومساحات خضر مجمَّلة.

وقد بنوا حديثاً بجانبه نصباً كالحائط المنبطح أي غير العالي رمزاً لمرور خمسين عاماً على انتهاء الحرب العالمية الثانية.

ميدان سمارا:

وهذا ميدان آخر من الميادين الكثيرة المتعددة في هذه المدينة المعتنى بها ويسمونه (ميدان سمارا) لأنه يرمز لإقليم سمارا فيه نصب عال يشبه المسلَّة المربعة فوقه تمثال رجل رافعاً على يديه صاروخاً، معه ورقة ترمز إلى الكتاب والثقافة. وهو أيضاً في مكان مرتفع يطل على الفولغا وإن لم يكن على ضفته مباشرة، ولكن ليس بينهما حاجز من بناء أو غيره.

وهو أيضاً ميدان جميل من منطقة معتنى بها على الضفة المرتفعة من النهر العظيم. كما يطل الميدان من البعد على الضفة اليسرى من نهر

الفولغا وهي خضراء ريفية أو تشبه الريفية فلا يرى المرء فيها منازل متصلة. والنهر هنا عريض جداً بحيث يبدو أن عرضه ما بين ثمانية كيلومترات إلى عشرة.

والمدينة متعددة المعالم، كثيرة الحدائق، منسقة في عدة أماكن منها.

ولكن المرافق فيها كالمرافق في المدن الروسية الأخرى تصعب الاستفادة منها. وهي قليلة من ذلك أن المفتي أراد أن يتكلم بالهاتف من أحد المحاريب العامة التي فيها هاتف عام. فاستمر فترة يبحث عن واحدة في المنطقة ويسأل عنها حتى وجدها.

شارع لينين:

مع الكراهية بالتلفظ الذي يعني تعظيم طاغية الشيوعية ومطبق سياستها لينين فإن الأمر يبدو لا بد منه في بعض الأحيان، لأن كل المدن الروسية التي نعرفها بدون استثناء قد أسمت ميداناً مهماً إن لم يكن أهم الميادين فيها باسم لينين وأقامت تمثالاً له في ذلك الميدان. وكذلك لا بد أن تسمى شارعاً من شوارعها الرئيسية باسمه أيضاً.

وهذه المدينة وهي كبيرة ذات شأن في البلاد أسمت شارعاً من شوارعها المهمة التي تصب في شارع الشاطىء (شارع لينين) مع أن جهته التي في داخل المدينة ليست بذاك. ولكنهم أقاموا على حاشيته من الجهة الجنوبية ميداناً متدرجاً بتدرج ضفة النهر، وجعلوا فيه نوافير عديدة متدرجة الإرتفاع أيضاً مررنا بها وكلها تدفع المياه المتراقصة الجميلة وهي كثيرة العدد إلا أنها صغيرة الحجم.

ثم غادرناه إلى داخل المدينة فمررنا ببناء أحمر الطلاء واسع المساحة ذكر لنا المرافقون من أمره عجباً وهو أنه مصنع للسيارات التي تنقل الأشياء نقلته الحكومة الروسية من موسكو إلى هذه المدينة إبان

الحرب العالمية الثانية من أجل أن يكون بعيداً عن أن يصل إليه الألمان فيخربوه.

قالوا: ولا يزال العمل مستمراً، أي أنه استمر مصنعاً للسيارات في المدينة، ولم ينقل عنها إلى موسكو بعد أن انتهت الحرب، وذلك أنهم وزعوا مصانع السيارات على أماكن عديدة. وهذا أمر جيد.

وقد مررنا بشارع قد صبوا فوقه الزفت من أجل تحسينه. إلا أنهم صبوا الزفت عليه كله فكانت السيارات تسير فوقه وهو يلوث أسافلها لا تستطيع تفادي ذلك، والعادة في مثل هذه الأحوال أن يغلق الشارع الذي يراد صب الزفت عليه. ويحول المرور إلى شارع آخر حتى يجف ويصبح صالحاً لسير السيارات عليه دون أن يلوثها.

لم يكن مرور السيارات كثيفاً في شوارع المدينة ولاحظت أن الناس يحترمون شرطة المرور، ولا يخالفونهم، لذلك لا يوقف أحدهم سيارته في مكان يمنع الوقوف فيه.

وحتى المشاة فإنهم يحترمون إشارات المرور فلا يمرون إذا كانت خضراء للسيارات، بل يقفون حتى تصبح خضراء لهم.

وهذا كله هو ما رأيناه الآن وتخيلت البلاد بعد أن تخرج من هذه الفترة الإنتقالية في الإقتصاد إلى إقتصاد السوق الحر فتزيد فيها السيارات بطبيعة الحال. وتزيد معها مشكلات المرور فهل تبقى على ما هي عليه من نظام جيد للمرور ومن احترام لأنظمته؟

ومررنا بعد ذلك بحوانيت صغيرة (دكاكين) من الأنموذج الذي وجد في روسيا بعد سقوط الشيوعية مباشرة وهي من الخشب تقام على هيئة محاريب (أكشاك) وتكون فيها بضائع صغيرة وقليلة وصاحبها يملك ما فيها ويديره بنفسه. وكانوا يعدون ذلك تطوراً لأن فيه خروجاً على النظام الشيوعي الذي يحصر البيع والشراء بالدولة، لأنها هي وحدها المخولة بذلك بموجب القانون.

سوق إفريقي في أوروبا:

هذا سوق أوروبي بناسه وأرضه. ولكنه إفريقي بكونه يماثل الأسواق الشعبية الإفريقية في بيعه وشرائه وكيفية عرضه.



السوق الشعبي في مدينة سمارا

ويصح أن يقال فيه: إنه من أسواق الرصيف لأن جزءاً منه واقع بالفعل على رصيف الشارع وبعضه في الشارع مما يلي الرصيف وبعضه داخل أيضاً في متسع بعد الرصيف.

ولولا هذا البياض الناصع من الألوان لقلت إنه في إفريقية، وكدت أقول: لولا هذا الجمال الذي هو ليس كثيراً في روسيا غير أن الجمال أمر

نسبي، وربما نرى جميلاً ما يراه غيرنا ليس كذلك. ولكن البضائع فيه قليلة، بل هي أحياناً نزرة، وأكثر البائعات فيه من العجائز إلا أن المتسوقات لسن كذلك. فقد ترى امرأة، بل حتى رجلاً جالساً أمامه مقدار من الموز لا يزيد وزنه على كيلو واحد وهو يبيع منه بالإصبع والإصبعين، وذلك لغلائه في هذه البلاد حيث يستورد من الخارج، ووسائل التبريد الحديثة غير متوفرة فيفسد بعضه إضافة إلى مغالاة التجار في الربح منه وأمثاله.

ولكن ينبغي ملاحظة حالة الأسرة في هذه البلاد فهي أسرة صغيرة جداً، والمواليد قليل وقد قل عددهم أيضاً في السنوات القريبة الماضية، لذلك لا يحتاج الشخص منهم إلا لقليل من الموز وأمثاله من الفواكه المستوردة.

والسمك قد رأيت رجلاً يبيع عنده خمس سمكات صغيرة ليس غيرها وأعتقد أنه قد أنفق وقتاً ثميناً في عرضها للبيع.

ومثل ذلك الخضراوات من الخيار والطماطم والتفاح البلدي الصغير كلها قليلة المقدار، زهيدة الثمن. ولكن الذين يدفعون مثل هذا الثمن عندهم هم قلة أيضاً.

ومن المناظر الطريفة منظر امرأة في منتصف العمر لا تزال على صورة وجهها مسحة من جمال قد وضعت أمامها وعاءً زجاجياً صغيراً فيه خيار مخلل تبيعه، ومع أنه كله لا يكاد يزيد عن الكيلو الواحد فإنني رأيتها تبيع منه لأكثر من شخص. . فهم يأخذون منه مقداراً قليلاً. وهناك بعض الأقمشة والأحذية، ولكنها كلها قليلة كأن ترى امرأة ليس معها إلا ثوب طفل واحد تعرضه للبيع وأخرى أو آخر أمامه حذاء واحد لصبي أو لكبير.

والزحام الشديد رأيناه على (الآيس كريم) فالمعروف أن الروس من أكثر الناس استهلاكاً للآيس كريم رغم كون بلادهم باردة، ولا يكادون يضعون الفلفل الحار في طعامهم. عكس أهل الهند الذين بلادهم حارة،

ولكنهم يكثرون من الفلفل الحار في الطعام. ولا يكادون يتناولون (الآيس كريم) مع أن القياس أن يكون العكس.



بائعة الآيس كريم في سمارا

وقد اشترينا من (الآيس كريم) لكل شخص بألفي روبل، أي حوالي نصف دولار أمريكي تقريباً، وهو مبلغ كبير بالنسبة إلى دخولهم. ولكنهم يضحون به من أجل الحصول على هذا الآيس كريم القليل.

وفي السابعة والنصف كنا نعود إلى بيت المفتي حيث ألح علينا بذلك فوجدنا المائدة المعهودة، عليها فطائر باللحم والبطاطس حارة

وفاكهة وقدم معها عسلاً ولبناً رائباً، فكان أول ما تناول القوم منها هذا الحساء الذي أسموه (الشربة التتارية) وهي تتارية حقاً لأنها لا بد أن تقدم في وجبات الأكل الرئيسية وهي حارة دسمة من لحم غنم سمين طبخ معها وفيها شيء من الشعيرية.

وهذا الحساء الذي أسموه تتارياً تقديمه في أول الطعام شائع في كل البلاد المسلمة الباردة من تركستان الشرقية التي هي الآن داخل الصين الشعبية إلى بحر البلطيق. ثم أحضروا صينية فيها لحم البقر مع بطاطس وشرائح من البصل المقلي.

وقد أكلنا هنيئاً حتى شبعنا شبعاً لا يكون في مطاعم الفنادق مع أننا لا نذوق طعام فنادقهم لأن إخواننا ذكروا أنهم يخنقون الذبيحة خنقاً.

وحضر المأدبة (طالب بن واعظ) وهو ابن المفتي واعظ. وقد افتتح حضوره بالدعاء الرمزي المعتاد لدى أهل هذه البلاد عند اللقاء أو بعد الفراغ من الطعام. فإذا التقى الرجل بصاحبه بادر أحدهما، وكل واحد منهما يرفع يديه بدعاءٍ قصير لا يسمع أحد ما يقوله، ولا يدري ماهية دعائه. وختمت المائدة بالشاي المحلى بالعسل، والمزين بملعقة من مربى الفراولة، وهي تعطي للشاي طعماً لذيذاً مميزاً.

هذا وكانت النسوة من أهل البيت يأتين بالصحاف والأواني فيها الطعام ويأخذن ما انتهى الأكل منه فيقفن عند باب الغرفة ولا يدخلن، ولا يسلمن على الضيوف، وقد رأيت بعد ذلك ابنة المفتي الشيخ واعظ مع زوجها الأخ عبد الواحد بن فؤاد وهي متنقبة أي وضعت النقاب على وجهها وهو كالبرقع الذي لا يظهر إلاّ أعلى الوجه الذي فيه العينان.

وهذا أمر نادر في هذه البلاد التي كاد نساؤها يخرجن من جلودهن

في هذا الفصل الصيفي وفيما يتعلق بالمائدة عرفت أن من عادتهم أن تبقى موضوعة جاهزة إذا كان عند صاحب البيت ضيوف فلا يرفع منها إلا الطعام الحار. إلا أنها تجدد في كل مرة، فيبعد منها شيء من الفاكهة أو المقبلات أو العسل ويضاف بدلاً منه غيره أو مثله.

وانتظرنا قليلاً بعد الفراغ من الطعام في انتظار وصول الإخوة الذين سنصرف لهم مساعدات للمشروعات الإسلامية التي رأيناها. من ذلك إعانة لدار الفتوى وللمسجد القديم على مصاريفه المتكررة وللمسجد الجديد الذي يجري بناؤه وكنا أعلنا لهم عندما زرناهم أننا سنقدم لهم خمسة آلاف دولار أمريكي إسهاماً من رابطة العالم الإسلامي في نفقات بنائه.

وكنت لاحظت أن خطوط القطار الكهربائي القصير (الترمواي) تمر من أمام بيت المفتي قريبة منه وليست تتوسط الشارع فقلت في نفسي: ألا يسبب القطار إزعاجاً لساكن البيت، وقد تيقنت من ذلك الآن فكان القطار إذا جاء مسرعاً ارتجت الأرض تحته وارتج ما حوله. ولا شك أن البيوت القريبة منه يحس أهلها بمثل ما يحس به أهل هذا البيت والقطار الكهربائي هذا يمر بأكثر شوارع المدينة الرئيسية. ومع ذلك لم أسمع شكوى منه، وربما كان هذا راجعاً إلى صعوبة الحياة في هذه البلاد فصاحب البيت يفرح بتملك بيته سواء أكان يمر به قطار أم لا، إضافة إلى كون الحكومة توفر للعامة وسيلة نقل رخيصة عامة، ولا تهتم بما يترتب على ذلك من مضايقات لقليل من الناس. وقد أعطانا كتاباً من جمعية المسجد الجديد موجهاً لخادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز حفظه الله يرجونه فيه المساعدة على بناء هذا المسجد.



ينتظرون الحافلات في سمارا

هذا وقد خرجنا من بيت المفتي بعيد التاسعة والشمس حية، إلا أن أكثر الشوارع قد خفت حدة المرور فيها وبعضها خلت من المارة. وهذا بخلاف ما هو عندنا حيث تعتبر الساعة التاسعة مساءً وقت الإزدحام في الشوارع والمتاجر.

يوم السبت: ١٧/ ٢/ ١٤١٦هـ ١٥/ ٧/ ١٩٩٥:

مغادرة سمارا:

تركنا فندقنا في مدينة سمارا فندق (سنترالني) في السادسة والنصف صباحاً قاصدين المطار للسفر من سمارا إلى أستراخان. فكانت الشوارع خالية في هذه الساعة المبكرة بالنسبة إليهم، ونحن في قلب المدينة القديم، الحافل بالإشارات الضوئية لكونه ليس فيه جسور ولا أنفاق، وصار السائق يقف عند إشارات المرور لا يتجاوزها إذا كانت حمراء رغم عدم وجود سيارات في الإتجاه المعاكس فقال له أحدنا: إنه لا سيارات موجودة وإنه ـ لذلك ـ لا ينبغي له أن يقف من دون فائدة، فقال المرافقون: إنه يخاف من الشرطة ولم يستتم كلامه حتى كانت سيارة الشرطة تمر بقربنا.

ولاحظت في هذه الساعة المبكرة شيئين من حرصهم على نظافة المدينة أولهما: أن الشوارع قد رشت بالماء لتوها أي في هذا الصباح وكنا رأينا سيارة ترش أحد الشوارع بالماء في الساعة الخامسة من مساء أمس. وذلك لمكافحة الغبار مع أننا لم نلاحظ فيها الغبار الموجود في مدينة أورنبورغ ومن بعدها مدينة (أورسك) التي كان الإهمال فيها هو السائد.

والثاني: أنني رأيت كناسات من النساء معهن المقشات والمكانس وهن يكنسن أرصفة الشوارع فذكرني مرآهن بمرأى كناسات من النساء في شوارع مدن عديدة في الهند والصين وهناك تجمع الكناسات اللاتي يكنسن

الشوارع والأرصفة بمكانس من القش ذات أذرع طويلة التراب ونحوه ويجعلنه كومات صغيرة فتأتي عليها الرياح والسيارات فتبددها وتلوث بها الشوارع مرة أخرى. ولو كانت لديهم إمكانات مالية وعندهم إصلاح إداري لاشتروا سيارات من مثل التي نستعملها في مدننا وهي التي ترشف الغبار والتراب الدقيق من الأرض رشفاً فلا يبقى منه في الشارع شيء.



في الشارع في مدينة سمارا

وعلى ذكر الكناسات اللاتي يكنسن الأرصفة أقول: إنني لم ألاحظ فيها من مخلفات الكلاب شيئاً كالتي تكون في بعض المدن الأوروبية ومن ذلك مدينة برشلونة في اسبانيا التي لم أر مدينة أخرى في أرصفتها من مخلفات الكلاب أي برازها ما في تلك المدينة.

هذا مع أن القوم هنا يتخذون الكلاب للحراسة، ولكنها كلها أو أكثرها من الصغيرة الحجم التي تنبه أهل البيت أكثر مما تهاجم اللص، أو الذي يريد دخول البيت من دون إرادة أهله. وقد أوحى إلي الخيال أنهم يتخذون الكلاب الصغيرة إقتصاداً في نفقات طعامها لأن الكبيرة تحتاج إلى مقادير أكبر من الطعام ولا أدري صحة هذا.

وقد أخذ السائق لسيارته وقوداً من محطة فيها ثلاث مضخات لا تزيد وكلها موضوعة في العراء ليس عليها سقف ولا مظلة مع العلم بأنها معرضة للثلوج والأمطار، وهنا يتبادر إلى ذهن مثلي الفرق بين حالة محطات بيع الوقود الموجودة في بلادنا وبين هذه المحطات في دولة روسيا التي هي من الدول العظمى وعندما فعلت وجدت الفرق كبيراً بل هائلاً لصالح بلادنا ولله الحمد.

وحملنا المفتي الشيخ واعظ بن لطف الله من بيته بسيارتنا التي هي حافلة صغيرة حيث خرج معنا هو وصهره نائبه الشيخ عبد الأحد إلى المطار حسب رغبته وتبين بعد ذلك أن وجوده معنا كان ضرورياً.

وخرجنا مع شوارع ضاحية بعد ضاحية حتى وصلنا الشارعُ الجيد الذي دخلنا منه وهو الذي فيه ميدان تعلو وسطه طائرة حقيقية من التي كانت مستعملة إبان الحرب العالمية الثانية واسمه (موسكوفا شاسا) أي شارع موسكو أو طريق موسكو. وهنا حسن الطريق وصار أملس بخلاف الشوارع في الضواحي فإنها خشنة، يحتاج أكثرها إلى الإصلاح، وإعادة الزفلتة.

قطعة العذاب:

ورد في الأثر: (السفر قطعة من العذاب) وقال بعض الظرفاء من الأدباء المسافرين: كنت أظن أن السفر قطعة من العذاب فوجدت أن العذاب قطعة من السفر.

قال هذا على طريق المبالغة في المشقات والمتاعب التي واجهته في سفره.

وبديهي أن السفر في الأزمان السالفة غير ما هو عليه الآن بعد أن ذللت كثير من الأمور فيه، إلا أنه لا يزال كما هو في بعض البلدان المتخلفة في الإدارة ومنها هذه البلاد الروسية. فقد كنا عانينا من حمل أمتعتنا معنا إلى الطائرة التي أقلتنا من (أورنبورغ) إلى سمارا، ثم حملناها بعد تردد في الوقت من الطائرة إلى خارج مبنى المطار في مطار سمارا هذا الذي نخرج إليه الآن.

وها نحن الآن نواجه متاعب في هذا المطار مع وجود المفتي ونائبه معنا. فلم نعرف أول الأمر أين نجد مكتب الترحيل الذي يتسلم تذاكر الركاب إلى مدينة (استراخان)، لم نجد من يرشدنا إلى ذلك، وتطوعت موظفة من المطار فأخبرت المفتي أن الضيوف الأجانب يصعدون إلى غرفة في الطابق الثاني فصعدنا نحمل أمتعتنا وحقائبنا الثقيلة إلى تلك الغرفة التي يعادل موقعها موقع الطابق الثالث فوجدناها مجهزة بمقاعد جيدة وفيها عدد من الأوروبيين قليل، وكتبوا عليها (انتورست) ومعناها: السياح الأجانب. وترجمها أحدهم لي بأنها تعني السياحة لا السياح.

ولكن المرافقين لم يعرفوا كيفية الترحيل ولا الطريق إليه فصاروا يترددون ومعهم مضيفة أرضية، وصاروا يذهبون ويجيئون ويتحدثون بالروسية من دون أن نفهم من الأمر شيئاً.

ومع ذلك نزلنا منها وخرجنا من مبنى المطار إلى حيث وقفت سيارتنا وذلك لتناول طعام إفطار كان الأخ المفتي أحضره من بيته لعلمه أنه لا يوجد في المطار ولا في الطائرة ما يؤكل، وهو فطاير وتفاح وعصير برتقال، ثم عدنا مرة أخرى إلى غرفة السياحة، وأخذ موعد قيام الطائرة يقترب وخرج الذين كانوا معنا في الغرفة لأنهم على رحلات غير رحلتنا..

وتبين أن بعض النقاش كان من أجل حمل أمتعتنا بإنزالها من الغرفة ثم حملها إلى مكتب الترحيل حتى وضعها في الطائرة فجاء رجلان اثنان رأيا الأمتعة وهي أربع قطع ولم يرضيا إلا بخمسين ألف روبل أي ما يعادل ١١ دولاراً أمريكية.

وهذا مبلغ كبير على أربع قطع منها حقائب تنقل على الأرض المستوية بالسحب. ولكن لا بد من ذلك لأن الإخوة المودعين لا يسمح لهم بالخروج إلى الطائرة.

لقد عجبتِ من ترددهم في أشياء تافهة كانت بعض البلاد النامية تنهيها بسرعة مثل تايلند وماليزيا فضلاً عن البرازيل - عمرها الله تعالى -.

وتيقنت مما جربته من قبل من أن الغريب في هذه البلاد لا يستطيع أن يسافر من مطاراتها إذا لم يكن معه من أهلها من يساعده ويترجم له من الروسية وإليها.

فقر وعبوس:

هنالك مثل عربي قديم يقول: (أفقراً وعبوساً)؟ تعني تجمع الفقر والعبوس؟ أو أيجتمع لنا منك الفقر والعبوس؟ فمع كل المتاعب والصعوبات وعدم الإعانة للغريب وعدم التعاون معه في هذه المطارات الداخلية في روسيا لا توجد المجاملة ولا مجاملة الإبتسام المتكلف الذي لا يضير صاحبه في شيء.

وعرفت من هذه الواقعة وقبلها عشرات أمثالها بأن قومنا وبلادنا في قمة الرقي والتقدم بهذا الشأن، إذ تجد في بلادنا من يساعدك إذا احتجت إلى مساعدة، كما أن الأمور فيها تسير بنظام وسلاسة حتى يستطيع الغريب أن يسافر من مطاراتنا بدون أدنى تعب إذا كانت لديه الأوراق الرسمية التي تخوله مغادرة البلاد إذا كان سفره إلى الخارج أو مغادرة المدينة التي يسكن فيها إلى مدينة داخلية أخرى.

وأما مطاراتنا فإن المطارات الرئيسية مثل مطارات موسكو لا تساوي شيئاً بالنسبة إلى مطاراتنا إلاَّ في السعة و(بعضها) لا ترقى إلى مطارات بعض الدول الإفريقية مثل كينيا والسنغال.

وأما المطارات المحلية في بلادنا السعودية مثل مطار المدينة المنورة ومطار القصيم ومطار الطائف فإنها في نظافتها، وانتظام العمل فيها تفوق مطارات عاصمتهم إلا في السعة وكثرة المسافرين والواصلين، ولن أقصر الأمر على الكلام على المطارات في بلادنا السعودية وإنما نذكر أيضاً المطارات العربية مثل مطارات الأردن ودبي والبحرين فإنها أفخر وأجمل وأكثر نظاماً من المطارات الروسية بمراحل.

وأخيراً جاملنا القوم فخصصوا موظفة كبيرة تكون معنا حتى تطمئن إلى ركوبنا الطائرة فصارت مع المفتي تسعى في أمر إركابنا، وكأن ذلك معضلة تحتاج إلى حل.

وعند مكتب الترحيل كان شرطي مسلح ينظر في تذاكر المسافرين وفي جوازاتهم ويكتب بعض ما يراه في مذكرة بيده وينظر في التذاكُر أيضاً حتى إذا انتهيْنا سمح لنا بالدخول مع بوابة كهربائية معتادة وأدخل الحقائب في فاحص كهربائي معتاد بجانبها.

وهنا نكون وصلنا إلى مكتب الترحيل الذي يقطع التذاكر. وقالت الموظفة التي وزنت أمتعتنا إن لديكم زيادة عشرة كيلات في الوزن، ومع أن المطارات التي قبل هذا المطار لم تقل: إن معنا زيادة في الوزن وأمتعتنا لم تزد عما كانت عليه، وإن العشرة التي ذكروها هي لثلاثة ركاب وهي زيادة لا تبالي بها أكثر الشركات فإننا لم نقل شيئاً لأن الأمر سهل، ولكن الصعوبة كانت في إجراءات دفعها، فقد أوقفونا في مكان ضيق وفرغوا موظفة لكتابة ما يلزم عندهم لاستحصالها فصارت تكتب وتوقع ثم جاء موظف آخر فكتب وتسلمها منا.

وكنا واقفين على ممر الدخول لقاعة المغادرة فرأيت من سوء معاملتهم للركاب ما أزعجني حتى إنهم أغلظوا لعجوز عرجاء لم تدر كيف تمر من الفاحص الكهربائي فانتهرها الموظف ثم سحبها بخشونة إلى حيث الممر. إلا أن الركاب والحق يقال، يبدون من تصرفاتهم كأهل البدو عندنا فهم لا يفهمون الأمور المتعلقة بالسفر، ولا كيفية التعامل مع الموظفين.

ثم خرجنا إلى قاعة المغادرة ونحن لا نكاد نصدق فأركبونا في حافلة كبيرة خشنة ليس معنا إلا الموظفة الكبيرة التي جعلوها معنا لتسهل أمورنا ولم يركب معنا أحد من الركاب فصحبتنا المضيفة حتى أخذنا مقاعدنا في الطائرة قبل أن يصعد إليها أي راكب وبعد قليل جاء الركاب وعددهم قليل لأن الطائرة صغيرة رغم كونها نفاثة فهي من طراز (ياك ٤٠) ليس فيها إلا ٣٤ مقعداً ولها ثلاثة محركات نفاثة وهي مريحة رغم صغرها فقد ركبتها أكثر من مرة ومنها مرة استأجرناها كاملة ليس معنا أحد غيرنا من الركاب، وذلك عندما كنا في مدينة (نالجك) عاصمة جمهورية (قبرداي بلغار). ولم نجد أية وسيلة للذهاب إلى داغستان فاستأجرناها كاملة بـ١٠٠٠ دولار لرحلة استمرت ساعة وخمس دقائق، ومن الطريف أننا نحن الركاب الذين استأجرنا الطائرة عددنا أربعة وإن الملاحين في الطائرة عددهم خمسة كانوا كلهم يجلسون في مقصورة القيادة إلا واحداً بمثابة المضيف كان يجلس خلف الطائرة مع أنه لم يقدم ضيافة وإنما قدمنا له نحن شيئاً من أطعمة خفيفة كنا حملناها معنا إلى الطائرة.

كما سبق أن ركبت هذه الطائرة عندما كنت على رأس وفد إلى الإتحاد السوڤياتي في عام ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م من باكو عاصمة أذربيجان إلى منطقة زاقاتالا في أذربيجان، ولم يكن معنا في الطائرة إلا الشيخ (الله شكر باشازاده) رئيس الإدارة الدينية في باكو في ذلك الوقت ومعه بعض موظفيه.

وقد مر بنا الطيار قبل صعود الركاب فسألناه عن المسافة بالكيلومتر

إلى أستراخان وكنا عجزنا عن التفاهم مع المضيف الذي لا يعرف من الإنكليزية حرفاً، وحتى الطيار لم يستطع التفاهم معنا بالإنكليزية وإنما كتب المسافة بالأرقام على ورقة وهي (١٢٢٥) كليومتراً تقطعها الطائرة هذه في ساعتين وثلث. وكنا دفعنا أمس تذكرة الطائرة لهذه المسافة ١١٢ دولاراً أمريكية للشخص الواحد.

إلى استراخان

إقليم استراخان

تقع استراخان على مصبات دلتا نهر الفولغا في بحر قزوين شمالاً. تأسست بصفة مقاطعة تبلغ مساحتها ٩٦٣٠٠كم[٢] في ٢٧ ديسمبر ١٩٤٣ ويقدر سكانها بحوالى مليون نسمة والمسلمون منهم ٣٠٠ ألف نسمة وهم من القازاق والتتار والأذاريين، موزعين كالتالي: ١٣٣ ألفاً قازاق و٩٠ ألفاً تتار والبقية من أنحاء منطقة القوقاز ومن داغستان.

بعد زوال دولة التون أورده الإسلامية العظيمة ظهرت فيها دولة إسلامية باسم خانية استراخان في عام ١٤٦٦م كانت تبسط سيادتها على المقاطعات الروسية الحالية وهي سمارا وساراتوف وستافرابول في شمال القوقاز ولكن بسط الروس سيادتهم عليها عام ١٥٥٦.

وقد حاول المسلمون بمساعدة تركية استعادتها عام ١٥٦٩ ثم هاجر إليها القالمون الفارون من تركستان كما استوطنها القوازق الروس ثم أقام الروس حكومة محلية فيها في سنة ١٧١٧ ثم أصبحت جزءاً من روسيا عام ١٩١٨.

وعاصمتها مدينة (استراخان) التي يبلغ عدد سكانها ٦٠٠ ألف نسمة وتبعد ٧٠ كيلومتراً من بحر الخزر (قزوين).

المدن التي زارها وفد الرابطة:

١ ـ مدينة استراخان:

ويقال إن أصلها حاجي طرخان وفي اللغة التركية القديمة يطلق اسم توره خان على الشخص الذي يعفى من الضرائب لمكانته أو لخدماته ويذكر ابن بطوطة الذي مر بها عام ١٣٣٣م بأن أحد المسلمين الذي حج إلى مكة المكرمة تسببت شهرته الدينية في إعفاء الإقليم من الضرائب، وأستراخان تقوم على الضفة اليسرى لنهر الفولغا على بعد نحو ستين ميلاً قبل النقطة التي يصب عندها في بحر قزوين وهو ثغر هام في بحر قزوين ويبلغ عدد سكانها حوالى ٣٠٠ ألف نسمة منهم مائة ألف مسلم لهم خمسة مساجد وإدارة دينية برئاسة الشيخ ناظم بن الياس اق تاج تشرف على النشاط الإسلامي في ولاية أستراخان والأماكن الإسلامية التي زارها وفد الرابطة هي:

أ ـ المسجد المركزي ويعرف بالروسي مسجد سوبورنايا Sobornaya بناه شاكر قازاقوف عام ١٨٨٩ ثم جدد عام ١٩١٩ وهو مسجد جيد البناء كان مفتوحاً منذ عام ١٩٨٠ وتستخدم غرفه مقراً للإدارة الدينية لولاية أستراخان.

ب ـ مسجد التتار ويقع بجوار السوق الشعبي بناه أيضاً شاكر قازاقوف عام ١٩١٣ واستعاده المسلمون منذ سنتين ويتم ترميمه وهو جيد وفي موقع حسن يتردد إليه القادمون إلى السوق وأكثرهم كما يقول الشيخ ناظم اق تاج رئيس الإدارية الدينية الإسلامية هم من مسلمي القفقاس.

ج ـ مسجد كريفوش الذي بني في أوائل القرن العشرين وصادره الشيوعيون أعيد إلى المسلمين منذ عام ١٩٩٢ ولكن لم يتم إصلاحه وترميمه ولا يزال على خرابه.

د ـ اق مسجد وهو مبنى من دورين ثم استرجاعه منذ سنتين، وأخلى ممن سكنه وقامت امرأةٍ مسنة تسكن في الجوار بفتح بابه وكان

الشيوعيون قد جعلوه غرفاً للإقامة. والمسجد مهجور حالياً ويحتاج إلى الإصلاح والترميم.

٢ ـ قرية فالونكا:



مسجد قرية فالونكا

تبعد بحوالى ٢٠ كيلومتراً عن استراخان ويبلغ عدد سكانها نحو ٢٠٠٠ نسمة أكثرهم مسلمون من تتار وقازاق وتركمان ويتم بناء مسجد جديد فيها من الآجر الأحمر وهو على وشك الانتهاء ويتولى مسؤوليته الأستاذ رستم بن زبير زين الدينوف.

٣ ـ قرية كلنجي:

تبعد عن استراخان نحو ٣٠ كيلومتراً، ولا يزال نظام المزارع الحكومية الذي يعرف باسم سوفخوز قائماً ويتولى إدارة مزرعة سوفخوز فيها الأستاذ جودت علي بن مولا مينغ ويقدر عدد سكان قرية كيلنجه بنحو ٤٠٠٠ نسمة منهم ٩٠٪ مسلمون قازاق وتتار.

ويعمل المسلمون بمساعدة رئيس قرية سوفخور كيلنجه في بناء مسجد جديد كبير متكامل المرافق على قطعة أرض مساحتها نصف هكتار ويشغل المصلى مساحة قدرها ١٧x١٧ متراً مربعاً وسيكون ارتفاع المئذنة نحو ٢٤ متراً كما يقول ذلك قوتنوق محمد عبد الرحيم رئيس الجمعية الإسلامية ومتولي المسجد وقد أقيم معظم جدار المسجد ولا يزال ينتظر الإتمام ويقال بأن قرية كيلنجه كان بها ثلاثة مساجد قبل الحكم الشيوعي.

تاريخ استراخان:

استراخان اسم المدينة التي سمي الإقليم باسمها وهي مدينة كبيرة إسلامية، بل كانت مدينة خزرية ـ نسبة إلى الخزر ـ قبل الإسلام ثم صارت عاصمة إسلامية مهمة لقرون عديدة.

وكان اسمها القديم (حاجي طرخان) وقد رأيت أن أنقل شيئاً يتعلق بها من الكتب العربية القديمة فلم أجد أشمل ولا أوسع مما ذكره الشيخ محمود الرمزي في كتابه (تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار، من وقائع قزان وبلغار) وهو من أهل قازان عاصمة جمهورية تتارستان في كتاب جليل، جمع فأوعى من تاريخ منطقة الشمال الإسلامي وبيان مدنها وملوكها.



شارع في استراخان

وقد طبع كتابه في مدينة (أورنبورغ) عاصمة إقليم أورنبورغ الواقع في جنوب روسيا وهو الذي قدمنا منه إلى (سمارا وأستراخان) وذلك في عام ١٩٠٥م أي قبل الحكم الشيوعي في روسيا، وقد رجع فيه إلى المؤلفات المكتوبة بالعربية والتركية والروسية لأنه يحسن تلك اللغات، وهو قليل الوجود في بلادنا بل يكاد يكون معدوماً فهو أندر في خزائن الكتب عندنا حتى من بعض المخطوطات التي يمكن الحصول على نسخ مصورة منها، لذلك رأيت نقل كلامه في الموضوع ـ على طوله ـ خدمة للمعرفة بهذه المنطقة التي كانت من مواطن المسلمين، ولا يزال فيها منهم بقية كما سيأتي.

ويلاحظ أنه ورد في كلام المؤرخ الروسي (كارامزين) أن (أستراخان) كان يقال لها في القديم (بولا نيڤار) واستظهر أنها (بلنجر) و(بلنجر) التي وردت في الأشعار التي قيلت في وقائع (باب الأبواب) وهي مدينة دربند في داغستان الأولى وحسب ما فهمته من كلام المتقدمين أنها في شمال داغستان الآن، وليست في أستراخان والله أعلم.

قال الشيخ الرمزي رحمه الله وقد حذفنا من كلامه يسيراً مما ليس هو مهم في الموضوع:

فصل من هذا المقصد في بيان وقائع بلدة حاجي طرخان وحيث كان اتصالها بوقائع سراي شديدة وتشكلها بصورة الإستقلال متعقبة لانقراض دولة سراي بل ضعفها ووقائعها قليلة ناسب أن نذكرها في هذا المحل وهي بلدة مبنية بقرب مصب نهر ايدل (فولغا) من بحر الخزر بين شعبتين من النهر المذكور أكبرهما في جهتها الغربية وهو الحائل بينها وبين الروسية وأصغرهما في جهتها الشرقية وهي واقعة من العرض الشمالي على ٤٧ درجة و٣٢ دقيقة ومن الطول الشرقي على ٦٥ درجة و٤٤ دقيقة وكانت تسمى في عصور خزر بمدينة ايتل وقد اتخذها ملوك الخُزر دار ملكهم وكرسي مملكتهم ثم اشتهرت في الأزمنة المتأخرة بأشترخان وحاجي طرخان وأزدرهان ذكر هذه المذكورات الفاضل المرجاني في تاريخه والمشهور عند الروسية آستراخان.

وقال كارامزين الروسي كان اسمها السابق في التواريخ آتيل ثم سميت بولانقيار (بلنجر) وسميت في العصر ١٣ الميلادي بصومير كنيت وسميت بعد ذلك بأسترخان وبعد دخولها في حوزة ملوك الأوردو الذهب سموها بأستراخان.

وقال ابن بطوطة في رحلته ومعنى طرخان عندهم الموضع المحرر من المغارم (قلت بل الشيء المحرر من التكاليف الميرية سواء كان موضعاً أو شخصاً فلا يؤخذ منه من طرف الحكام ما يؤخذ من غيره).

قال: والمنسوب إليه هذه المدينة هو حاج من الصالحين تركي نزل بموضعها وحرر له السلطان ذلك الموضع فصار قرية ثم عظمت وتمدنت. قلت فهذا مخالف لما ذكره الفاضل المرجاني ولعل ما ذكره قريب من هذا الموضع أو كان خراباً لم يبق منه أثر وقت نزول الحاج المذكور ولم أدر في أي زمن كان هذا ومن هو هذا الحاج وما اسم السلطان المذكور ولا يبعد كونه في أوائل سلطنة السلطان محمد أوزبك خان.

ثم قال ابن بطوطة: وهي من أحسن المدن عظيمة الأسواق مبنية على نهر اتل وهو من أنهار الدنيا الكبار وهنالك يقيم السلطان حتى يشتد البرد ويجمد هذا النهر وتجمد المياه المتصلة به ثم يأمر أهل تلك البلاد فيأتون بآلاف من أحمال التبن فيجعلونها على الجليد المنعقد فوق النهر ويسافرون بالعربات فوق هذا النهر والمياه المتصلة به ثلاث مراحل اهـ.

ولما طرق تيمور الأعرج تلك البلاد في النوبة الأخيرة، خربها كلها وطرأ الشقاق والنفاق بين ملوك تلك الديار وبغى بعضهم على بعض ولم يتيسر لهم الوفاق واتحاد الكلمة اتخذ بعض منهم البلدة المذكورة دار ملك لنفسه لمتانة موضعها ومناعة موقعها ولكونها في الدرجة الثانية من كرسي المملكة أيام الخوانين[1] الكبار كما مر آنفاً عن ابن بطوطة فصارت مستقلة تارة وتابعة لدولة أوردو الذهب وخوانين سراي تارة أخرى.

إلى أن انقرضت دولة أوردو الذهب وخربت بلدة سراي بالكلية في التاريخ المار ذكره آنفاً فحصل لها بعد ذلك نوع استقلال مع قلة توابعها ومضافاتها حتى استولت عليها الروسية بعد زمن يسير من استقلالها.

فأول من عرف فيها خاناً هو قوير جق خان ابن ارص خان على قول الفاضل المرجاني ثم ابنه براق.

---

(١) الخوانين: جمع خان وهو الملك.

ثم قال المرجاني: ثم ابنه تيمر بهادرخان.

وقال أبو الغازي تيمر سلطان والظاهر أنه تيمر خان المار ذكره الذي طرده جلال الدين خان.

ثم قال المرجاني ثم ابنه محمد خان ثم حفيده جواق خان ابن يعقوب بن محمد خان قلت جعل أبو الغازي جواق خان ابن محمد خان والظاهر أيضاً أن محمد خان هذا هو المشهور بكجك محمد خان ابن تيمر خان إن سلمنا على كونه ابن تيمر خان على ما ذهب إليه المرجاني وقد عرفت ما فيه ثم قال المرجاني ثم ابنه منغشلاق خان ثم أحمد خان ابن محمد خان الصغير ابن تيمر خان.

ثم قال ثم أخوه محمود خان وله دراهم مضروبة بحاجي طرخان وغيرها مكتوب في بعضها السلطان العادل محمود بن محمد بن تيمر وفي بعضها بزيادة لفظ خان بعد كل اسم.

ثم قال الفاضل المرجاني ثم ابنه قاسم خان ووجوده في حدود سنة ٨٨٠هـ معلوم.

قال: ثم ابن عمه عبد الكريم خان بن أحمد خان بن محمد خان وكان باقياً من سنة ٨٩٥هـ إلى سنة ٩١٠هـ.

قال كارامزين المؤرخ الروسي وفي سنة ١٥٠٨م ومصادفة سنة ٩١٣هـ أرسل منكلى كراي إلى موسكوا(١) سفيراً يطلب مطالب عديدة من جملتها إرسال الروسية عساكرها إلى حاجي طرخان من نهر وولغا(٢) لإمداده في تخريب حاجي طرخان وإبادتها بعد أن خرب سراي فيخلد في الدنيا إلى آخر الأبد ويكون من ثاني المنظرين.

(١) عاصمة روسيا.
(٢) نهر الفولغا.

فاعتذر إليه الكيناز[1] واسيلي بن ايوان[2] بأن الوقت لا يساعده الآن لذلك.

قال المرجاني ثم أبو سعيد جانبك خان بن براق بن قوير جق ثم ابنه حسين خان كان حياً في حدود سنة ٩٢٨ قال كارامزين في خلال بيان حوادث سنة ١٥٢٣م مصادفة سنة ٩٢٨هـ كان الخان في الوقت المذكور في حاجي طرخان حسين بن أومير شاه جانبك خان وكان يريد الاتفاق مع الروسية ولكنه لم يقدر أن يحمي نفسه من محمد كراي خان القرمي[3] فإنه اتفق مع ماماي خان نوغاي وهجم على حاجي طرخان وطرد منها حسين خان واستولى عليها.

ثم قال بعد ذكر قتل محمد كراي القرمي في السفر المذكور ووقوع فتنة عظيمة في قرم بعد قتله وانطفاء نيران تلك الفتنة بجلوس سعادت كراي خان إنه يعني سعادت كراي خان كتب إلى واسيلي يظهر له وداده ويعلن اقتداره ويقول إن السلطان صديقي وحامي وحسين خان الحاج طرخاني صديقي وصاحب كراي خان القزاني أخي الخ.

قلت وكان جلوس سعادت كراي في أواخر سنة ٩٣٠هـ ولعلَّ كتابته إلى واسيلي بعد انقضاء السنة المذكورة فيكون حسين خان حياً في العام المذكور.

ثم قال الفاضل المرجاني ثم آلق خان ثم قاسم خان بن السيد أحمد خان بن أحمد خان بن محمد خان الصغير قتل في سنة ٩٣٨هـ حين هجمت الجراكسة على الحاج طرخان اهـ.

---

(١) الكيناز: الحاكم الروسي الكبير.

(٢) هو فاسيلي بن ايفان.

(٣) حاكم بلاد القرم الملحقة الآن بأوكرانيا كتبت عنها كتاباً مطبوعاً بعنوان (على مسرح المأساة: بلاد القرم).

وقال كارامزين المؤرخ الروسي حين تعداده الوفود الواردين إلى الروسية من سائر الدول في سنة ١٥٣٢ وما بعدها: أنه ورد إلى واسيلي في التاريخ المذكور من الخان الجديد في حاجي طرخان يسمى قاسم خان رسول يريد الإتفاق معه ولكن قبل وصول السفير المذكور إلى موسكوا هجمت الجراكسة إلى حاجي طرخان وقتلوا قاسم خان وكثيراً من الأعيان ونهبوا أموالاً كثيرة ونصبوا فيها خاناً يسمى آقوبك وصعدوا إلى الجبال ولكن لم تطل مدة الخان المذكور أيضاً بل جلس عبد الرحمن خان وأرسل إلى واسيلي يخطب وداده وكان ذلك في سنة ١٥٣٤م مصادفة سنة ٩٤١هـ.

ولذا قال الفاضل المرجاني ثم عبد الرحمن خان لم يعلم اسم أبيه وسلسلة نسبه وكان موجوداً من سنة ٩٤١ إلى سنة ٩٤٥هـ.

قال كارامزين في خلال بيان وقائع سنة ١٥٣٤ إلى سنة ١٥٣٨م: أرسل ايوان بن واسيلي إلى حاجي طرخان سفيراً لعبد الرحمن خان يدعوه إلى الإتفاق معه فقبله الخان المذكور مع الممنونية لخوفه من خوانين قرم ونوغاي ولكنه لم تطل مدة خانيته بعدئذ بل هجمت طائفة نوغاي إلى حاجي طرخان بعد أشهر واستولوا عليها فهرب منها الخان المشار إليه فأجلسوا مكانه خاناً يسمى درويش علي خان اهـ والظاهر أن هذا كان في خلال سنة ١٥٣٥م مصادفة سنة ٩٤٢هـ وهذا مخالف لما ذكر الفاضل المرجاني مخالفة كلية.

حيث قال ثم يعني بعد خانية عبد الرحمن خان تسلطن الشيخ حيدر خان ابن الشيخ أحمد خان في سنة ٩٦٦هـ ثم خلع في سنة ٩٤٨ وجلس مكانه آق كباك خان ابن مرتضى خان ابن أحمد خان ثم قتله يمغور جي خان في سنة ٩٤٩ ثم يمغور جي خان ابن بردى بك سلطان بن مرتضى خان دام تسلطنه إلى سنة ٩٦١هـ وقيل قتل صاحب كراي خان في سنة ٩٠٦ ثم درويش علي خان ابن شيخ حيدر خان مرة أخرى.

قال وفي سنة ١٥٤٢م وسنة ٩٤٩هـ أتى بلدة موسكوا ولد خان حاجي طرخان يادكار للخدمة في روسية اهـ ولعل يادكار الذي صار خاناً في قزان بعد ذلك.

وقال في خلال بيان وقائع سنة ١٥٦٧م وسنة ٩٥٤هـ وفي ذلك الوقت كان صاحب كراي وحده يهدد إيوان بالسيف وقد كان استولى على حاجي طرخان وخربها وأسر أهلها وأدخل أكثرهم إلى قرم وجعل طائفة نوغاي تابعين ومنقادين لنفسه الخ.

قلت وهذا الذي ذكره الفاضل المرجاني ولكنه لم يقتل يمغور جي خان بل كان هو حياً بعد ذلك كما سيذكر ولعله هرب منه ثم جلس بعد رجوعه والله أعلم.

وقال بعد بيان موت صاحب كراي خان وجلوس دولت كراي خان مكانه وسعيه في تخليص قزان من يد الروسية كان يمغور جي، خان الحاج طرخان متفقاً مع ايوان ومصالحاً معه وكان يمده ويعينه بعساكر. وكان قابولا بك بن آقفو بك الحاج طرخاني تزوج ببنت جان علي خان أخي شيخ علي خان وقد أعطاه ايوان بلدة يوريف ليتصرف فيها ويصرف محصولها في مصارفها فلم يكن للإيوان عدو سوى قرم(١) وكان عنده عسكر كاف لمحاربتها ولهذا كان لا يخافها.

قلت وكان جلوس دولت كراي خان في سنة ٩٥٨هـ.

ثم قال كارامزين وكان أهل حاجي طرخان مجتمعين من أجناس شتى ولم يكونوا من رجال الحرب والضرب وكانوا يلتجأون إلى الروسية لتضييق الجراكسة وخوانين قرم إياهم دائماً حتى إن آخر خوانينهم رضي بالأخرى أن يكون تابعاً لإيوان وأن يعطيه الخراج ولكنه اغتر بعد ذلك

(١) هي إقليم القرم المعروف الآن بأنه في أوكرانيا.

بفرمان سلطان تركيا[1] فاتفق مع دولت كراي خان القرمي ومرزا يوسف النوغائي وكان مرزا يوسف المذكور خصماً ألد لإيوان لأجل بنته سيون بكه وولدها أوتامش كراي فلهذا كانوا حبسوا سفير ايوان في حاجي طرخان فاغتنم ايوان هذه الفرصة للاستيلاء على حاجي طرخان وتفكر كون حاجي خان سابقاً من بلاد ولاديمير[2] ومستيصلاو وإن اسمها سابقاً تموتوروقان وانضم إلى ذلك إغراء واحد من أمراء نوغاي يسمى ميرزا إسماعيل الكيناز ايوان على محاربة يمغورجي خان وقال له إنها من مدن الروسية سابقاً والتمس منه أن يخرجها من يديمغور جي وأن يسلمها إلى درويش الذي كان خاناً بها قبل يمغور جي فطرده منها يمغور جي واستولى عليها فأرسل ايوان في سنة ١٥٥٤م وسنة ٩٦٢هـ فرقة من العسكر تحت قيادة القائد شيما كين والجسور ايغناتي ويشناكف وكان شيماكي أرسل في طليعته الكيناز اليكساندر الوازمسكي في ٢٩ يونيه من العام المذكور فنزلوا في الجزيرة الأسود من مضافات حاجي طرخان وقتلوا هناك مئات من الحاج طرخانيين واستخبروا بأن يمغور جي خان أسفل منهم بمسافة ويرسته ٥ وإن التتار متفرقون في جزاير حاجي طرخان فمرت الروسية على مدينة سراي المسماة بالتون أوردو التي كانت أمراء الروسية وحكامهم طأطأوا لها رؤوسهم مئتي سنة وقد خربت الآن وصارت مسكناً للبوم والغراب.

ولكن ملاحظة القوة الحاضرة أحسن من تخطر العجز والفتورات الماضية فدخل شيماكي في حاجي طرخان في يوليه من العام المذكور بلا

(١) وسيجيء ذكره في المقصد الثالث بعد بيان سقوط قزان منه عفى عنه.

(٢) كذب لم يدخل حاجي طرخان في تصرف الروسية قط قبل استيلاء ايوان مدهش عليها وأما تاموتارقان فقد كان يطلق على سواحل بحر أوزاق ومضيق بوسفور وهي التي استولى عليها الروسية أيام ولاديمر مانوماخ وكانت مدة في تصرف ولده مسيتلا وراجع المقدمة عند ذكر الخزر منه عفى عنه. أي من كلام الشيخ الرمزي و(ايوان مدهش) هو ايفان الرهيب.

مقاومة أحد لكونها خالية من السكان وتعقب الكيناز اليكساندر يمغورجي خان فوجده قد هرب وترك كثيراً من الأسلحة في مصيفه فتعقبوا الهاربين وقتلوا منهم بعضاً وأسروا بعضاً ونجا البعض وممن نجا يمغور جي خان فتوجه بعشرين نفراً من أتباعه إلى بلدة ازاق وبقي أهله وعياله كلهم في حاجي طرخان فجاؤوا بهم وبكثير من الأمراء الكبار وسائر الأسارى لدرويش خان فاضطر كلهم إلى الإطاعة إياه فاجتمع لديه خمسمائة نفر من الأمراء والأعيان و١٠٠٠٠ نفر من سائر الأهالي فعين درويش خان مساكن في البلد للأمراء والأعيان وفرق البواقي على الأطراف والجوانب وحلف الكل على إطاعة ايوان وأداء الخراج له ٤٠٠٠٠ ذهباً و٣٠٠٠ سمكاً في كل عام وعلى أنه متى مات درويش خان لا ينصبون مكانه أحداً بل كل من ينصبه ايوان خاناً لهم يكونون تابعين ومنقادين له فكتب هذا في ورق وكتب فيه أيضاً أن الروسية يصطادون السمك في نهر ايدل (وولغا) من قزان إلى حاجي طرخان مع التتار من غير اختلاف ونزاع بينهم فبلغ هذا الخبر ايوان في اغستوس ٢٩ المصادف ليوم ولادته فسر بذلك سروراً كثيراً وقد كانوا حملوا معهم أربع من زوجات يمغور جي خان إلى موسكوا فأعادهن ايوان إلى حاجي طرخان رعاية لخاطر درويش خان فنفست إحداهن في الطريق فهلكت بالهلاك الأبدي.

قلت المشهور في الألسنة إلى الآن أن الميرزا اسمعيل المذكور عليه من الله أشد ما يستحقه قاد عسكر الروسية بنفسه وجاء بهم إلى حاجي طرخان وفتح باب البلد بيده الخبيثة جزاه الله بعدله ولا شك أنه ليس وحده بل له أتباع من أمثاله فحينئذ لا نطيل الكلام بالمحاكمة وإيراد أسباب الغلبة والمغلوبية بل كل من يطالع هذا يعرفها بأدنى تأمل.

هكذا كان أهل الإسلام يهدمون أساسهم بأيديهم وهم مستمرون على هذا الحال إلى الآن وكأن الله سبحانه سلب عقولهم، فهل دامت الدولة لهؤلاء الخذلة؟ هيهات.

ثم قال كارامزين الروسي: إن حكومة حاجي طرخان وإن أدت

الخراج للروسية إلا أنها كانت تعد مستقلة ولم يحسن درويش خان التدبير ولم يف بعهده مع ايوان ولم يدم على اتفاقه معه بل قادته جنسيته إلى الاتفاق مع دولت كراي خان القرمي وجعل أحد أبناء الخان المذكور ولي عهده وخان الروسية فأرسل ايوان عسكراً لمحاربته في سنة ١٥٥٧م سنة ٩٦٥هـ أو قبلها فبعد اللتي واللتيا انهزم درويش خان وهرب من وراء يمغور جي خان إلى بلدة أزاق فاستولت الروسية على حاجي طرخان استيلاء كلياً وأدخلوها في حوزتهم في التاريخ المذكور فساد الأمان فيها وفي جوانبها وأطرافها وتخلص الأهالي من الفتن والنهب والغارة والهجمات المتتالية وصارت التجار يردون إليها من الأطراف والجوانب فصارت محل تجارة عظيمة بمقتضى موقعها ولم تكن للروسية بلدة أكثر فائدة ودخلا منها وصارت سفراء بخارى وخوارزم والجراكسة يفدون إلى الروسية تترى يعقدون معها المعاهدات التجارية فعظمت شوكة الروسية جداً وصارت لا تخاف حكومة قرم قطعاً وكانت هي أيضاً لا تقدر على إيراث ضرر عليها اهـ.

قلت وبهذه الكيفية ارتفع لحاف الخواجه نصر الدين هذا أيضاً من البين فلم يقع من أحد هجوم ولا محاربة ولا نهب ولا إغارة كما كانت تقع سابقاً فاستراح الناس وصار كل واحد منهم يشتغل بأشغاله الخاصة به وهكذا إلى الآن صنيع سوء الإدارة وحسن الإدارة بصرنا الله تعالى وسبحانه بعيوبنا ويطلعنا على سوء صنيعنا ويوفقنا لإصلاح أحوالنا وتحسين أفعالنا. والظاهر أن الروسية خربت وقت الاستيلاء عليها كثيراً من أبنيتها السابقة وسكنت في مساكن أهلها بعد أن طردوهم منها فانحاز أهلها إلى طرف منها حتى يقال إلى الآن أن مسجدها المسمى باق مسجد نقل من محله ثلاث مرات والمشهور عندهم أن قلعتها المبنية فوق تل واقع وسط البلد باقية من المسلمين لم يتغير من هيئتها شيء سوى أنهم حولوا مساجدها كنائس على ما هو عادتهم وزادوا في داخلها أبنية أخرى والله سبحانه أعلم اهـ كلامه رحمه الله.

تعليق:

تكرر في كلام الشيخ الرمزي تعبيرات غير مألوفة الآن مثل (ايوان) وهو (ايفان) قيصر روسيا الملقب الرهيب عندنا ولفظ لقبه باللغة الروسية (قروزني) وهي تدل على معنى مدهش وما يقرب من معنى رهيب، ولكن معنى مدهش أصح في الترجمة. ومثل (ولغا) وهو نهر الفولغا الذي يسميه أهله إيدل ونسميه في كتبنا القديمة (إيتل).

كما ذكر الشيخ الرمزي بلدة (سراي) وكرر ذكرها وهي غير (ستراخان) وكانت عاصمة إسلامية ولكنها خربت ولم تعمر بعد إلا إذا كان ذلك على هيئة لا تستحق الذكر.

وكذلك يكتب الاسم الروسي التي اعتدنا الأولى على كتابته (فاسيلي) (واسيلي) وذلك أن أوله فاء معطشة ولكن الأمر أمر اصطلاح.

وتكرر فيه ذكر (القرمي) نسبة لبلاد القرم المشهورة التي زرتها وكتبت عنها كتاباً مفصلاً، وقد طبعته (دار القبلة في مكة المكرمة).

ويكتب (قازان) عاصمة جمهورية (تتارستان) (قزان) واللفظة عربية بمعنى (قِدْر) بكسر القاف وإسكان الدال وهي التي يطبخ بها.

كما يستعمل كلمة (خان) وجمعها خوانين: بديلة من ملك، وحاكم، وهذه كلمة تركية قديمة وقيل مغولية.

ويذكر (أوردو الذهب) وهي الأمبراطورية المغولية المسلمة التي أسسها السلطان العظيم (بركة خان) حفيد جنكيز خان وابن عم هولاكو الذي خرب بغداد، وكانت عقوبته على ذلك من الله أن سلط عليه ابن عمه الملك المغولي المسلم (بركة خان) هذا فكسره في الحرب كسرة عظيمة وهزمه هزيمة لم يفلح بعدها أبداً. فمات مذموماً مدحوراً.

وتلك القبيلة صار اسمها (اولتن أوردو) بالتركية ومعناه بالعربية (القبيلة الذهبية).

ويذكر (الكيناز) وهذه لفظة روسية معناها: الحاكم الكبير. وكان حاكم موسكو يقال له (الكيناز) في وقت من الأوقات.

و(موسكو) يكتبها (موسكوا) بإثبات ألف بعد الواو. وهذا هو النطق الصحيح لاسمها عند أهلها حتى الوقت الحاضر فهم يقولون (موسكوڤا) بفاء معطشة خفيفة.

وفي الختام ذكر الشيخ الرمزي نقلاً عن المؤرخين المسلمين وعن المؤرخ الروسي الشهير كارامزين سقوط (حاجي طرخان) التي تسمى الآن (استراخان) وهي التي نتوجه إليها الآن بيد الروس سقوطاً نهائياً إثر الحرب التي شنها الروس عليها في عام ٩٦٥هـ.

أما القلعة التي ذكر في آخر كلامه أنها باقية من المسلمين فإننا سوف نذكرها عندما نزورها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

وقد استرعى انتباهي ما ورد من كون استراخان كانت تسمى في عهد الخزر مدينة (إتل) إذ قد مر عليَّ كثيراً اسم هذه المدينة في نصوص كثيرة أحببت أن أنقل منها ما ذكره الشريف الإدريسي في كتابه (نزهة المُشتاق) حيث قال:

و(ايتل) مدينة الخزر وقصبتها وهما مدينتان عامرتان من ضفتي النهر المسمى بها والملك يسكن المدينة التي في الضفة الغربية من النهر والتجار والسوقة وعامة الناس يسكنون المدينة التي في الضفة الشرقية وطول مدينتي ايتل نحو ثلاثة أميال ويحيط بهما سور منيع وأكثر أبنيَتها خركاهات لبود وهي قباب يتخذها الأتراك من ذلك وجلتهم يبنون بالتراب والطين وقصر ملكها مبني بالآجر ولا يتعدى أحد هناك على أن يبني بالآجر خوفاً من الملك. والخزر نصارى ومسلمون وفيهم عبادة أوثان ولا يعير أحد على أحد شيئاً من أمر دينه. وزراعات اتل على ما جاور النهر من الأرضين فإذا زرعوا وحان أوان حصاده خرجوا إليه بأجمعهم كان قريباً أو بعيداً

فحصدوه ثم ينقلونه بالعجل إلى ضفة النهر ثم يحتملونه بالمراكب في النهر وأكثر طعامهم الأرز والسمك.

ونهر اتل جانبه الشرقي من ناحية بسجرت فيجري ما بين البجناكية وبلغارية وهو الحد بينهما وجريته غرباً حتى يصل ظهر بلغار فيعود راجعاً إلى ما يلي المشرق حتى يجوز على الروس ثم على بلغار ثم على برطاس ثم على الخزر حتى يقع في بحر الخزر. ويقال إنه يتشعب منه نيف وسبعون نهراً ويبقى عمود النهر يجري إلى بحر الخزر ويقال إن هذه المياه المفترقة إذ هي مجتمعة في أعلى النهر تزيد على مياه جيحون ونهر بلخ كبراً وغزر مياه وسعة على وجه الأرض.

من سمارا إلى استراخان:

قامت الطائرة النفاثة الصغيرة التي ركبنا بها من (سمارا) إلى استراخان، في التاسعة والثلث صباحاً متأخرة ثلث ساعة عن الموعد المحدد لقيامها في الأصل.

وقد امتلأت مقاعدها الأربعة والثلاثون بالركاب ما عدا أربعة كانت خالية، والركاب خليط من المواطنين الروس ومن أناس عليهم مظهر أهل القوقاز الذين يختلفون عن الروس في المظهر بكونهم أقرب إلى العرب الشماليين في الألوان وتقاسيم الوجوه.

وفي الطائرة مضيفة واحدة لا تعرف الإنكليزية.

عندما نهضت الطائرة كانت تطير فوق نهر سمارا بطياته العجيبة قبل أن يصل إلى المدينة، فيذوب في نهر ايتل (الفولغا) كما يذوب الفرد في النظام الشيوعي الشامل الذي كان يلف هذه البلاد.

ثم بدا شيخ الأنهار (الفولغا) على البعد كالبحر الزخار، وكأنما كان يتحدى الأعصار ويذكر ماضي المسلمينَ المجيد في هذه الديار، ثم يشهد أيام الانحسار والإدبار، وذلك بما كسبت أيديهم: (إن الإنسان لظلوم كفار).

وبدت غابات ملتفة إلى الجنوب من المدينة وليست الغابات والتفاف الأشجار بمستغرب على هذه الديار، وارتفعت الطائرة بسرعة،

فجاءت المضيفة بجرائد صغيرة الحجم من الجرائد الروسية تبيعها على الركاب، لأن مقاعد الطائرة كانت خالية من أي شيء يقرأ، وددنا لو كان فيها جريدة بالإنكليزية فنشتريها ولكن لا توجد عندهم جرائد بالإنكليزية.

وأما المنظر من الطائرة فإنه المنظر المألوف في هذه البلاد الروسية خلال فصل الربيع هذا الذي هو فصل الصيف المحرق في بلادنا وهو منظر الحقول التي تغطي الأرض إلا أنها ليست كلها خضراء، بل بعضها متروك بدون زراعة لتخصبه الشمس والرياح، وبعضها حقول قمح حصيد.

ثم أعلنت المضيفة من مكبر الصوت شيئاً بالروسية لم نفهمه وإنما عرفناه بعد ذلك وهي أنها أحضرت معها زجاجات من الخمر وقليلاً من الفستق، وصارت تبيعه وتقبض ثمنه من الركاب.

أما الضيافة المجانية فهي المعتادة في الطائرات الروسية في الرحلات الداخلية وهي ثلث كأس من شراب أخضر من عصير الفاكهة يشبه طعمه طعم شراب الخس أو الخيار وهذا كل ضيافتها.

أما بيع الخمور داخل الطائرة خلال رحلة داخلية فهو شيء جديد عندهم إذْ كانوا يمنعون التدخين وشرب المواد الكحولية في كل الرحلات الداخلية وهذا ما عهدناه منذ زمن الإتحاد السوفياتي، وسيطرة المذهب الشيوعي، وقد طرت معهم أكثر من مرة من موسكو إلى طشقند، وبالعكس، فرأيتهم لا يسمحون بأن يحمل الركاب أي مواد كحولية على الطائرة ولو اشتروها بأنفسهم، فضلاً عن أن يكون المسؤولون في الطائرة يقدمونها للركاب.

هذا وقد استوت الطائرة في الجو فصار طيرانها ثابتاً مريحاً بل رتيباً يبعث على النعاس فأردتُ أن أكتب شيئاً مما تقرأه الآن لأنه لا عمل لي إلا هذا فليس معي ما يقرأ وليست بي حاجة إلى النوم. ولكن المشكلة أن ظهور المقاعد ليست فيها موائد الطعام التي يكتب عليها في العادة لأنهم

كانوا وما يزالون تقتصر الضيافة في رحلاتهم التي لا تزيد على ساعتين ونصف على قليل من الماء المعدني أو شراب الفاكهة يقدمونه في كأس لا يكاد يصل فيه إلى منتصفه، فصرت أكتب على ركبتي مثلما كنت وأنا صغير، وحتى بعد ذلك قبل أن نتخذ موائد الكتابة الحالية المعتادة.

وفي أثناء الكتابة كنت ألقي نظرة من النافذة على الأرض فأجد أن الطائرة مرتفعة، إلا أن المناظر بدأت تتغير تحتها ورأيت الفولغا بعرضه وغزارة مياهه.

فوق منطقة استراخان:

بعد أن أمضت هذه الطائرة النفاثة الصغيرة ساعتين من الطيران بدأت التدني وهي تتدلى بثبات فوق أراضٍ غير خصبة، بل إنها ظهرت كأنها تشبه الصحراء مما لم أصدقه أول الأمر ظناً مني أنني لم أتحقق من ذلك بسبب ارتفاعها.

ثم اتضح المنظر فإذا به صحراوي تماماً إلا أن نهر الفولغا العظيم كان يشق هذه الصحراء، في وادٍ خصب غير واسع كما يبدو من الطائرة، وأما الأراضي الصحراوية فإنها مرتفعة عن هذا الوادي وهي ترى إلى مدى البصر صحراء جافة أو كالصحراء الجافة، ولاحظت وجود (سباخ) فيها: جمع سبخة وهي الأرض الملحية التي تكون رمادية اللون، وتكثر هذه السباخ في الصحاري في العادة.

ثم صارت الطائرة تطير فوق منطقة عجيبة حقاً إذْ هي فروع عديدة من نهر (الفولغا) على هيئة أنهار عديدة، ما بين صغار وكبار لا يحصيها المرء إذا حاول أن يعدها من الطائرة. وكل فرع يستحق وحده أن يسمى نهراً، ولو كان يجري مستقلاً لصار نهراً مذكوراً بلا شك.

وليست الغرابة في وجودها بهذه الكيفية فحسب، وإنما هي - أيضاً - في كونها توجد بينها مستنقعات ومياه راكدة قد اخضر لونها من

طول المكث، ومع ذلك فيها قرى وسكان ولا أدري كيف يتفادون أذى هذه المياه الراكدة، وما قد يوجد فيها من بعوض وحشرات لاسعة، والظاهر أن قصر فصل الصيف الذي تتوالد فيه الحشرات، وطول موسم البرد حيث يمتد من فصل الخريف إلى فصل الربيع مما يقتل الحشرات، وينجي الناس من شرها.

وشيء آخر عجبت له هنا وهو أنني رأيت بعض القرى وتجمعات المساكن تعيش وسط حصار من مياه النهر فيما يشبه الجزر المستطيلة في أكثر الأحيان. وترى الأراضي الزراعية فيها ضيقة ولكنها موجودة.

ورأيت في منطقة أخرى شعاباً من مياه النهر أو قل إنها فروع من فروعه قد تقلصت مياهها فاخضرت وبدت متغيرة، وبين الفروع الصغيرة من النهر ترى فروعاً كبيرة تستطيع أن تتبينها من الطائرة، ولا يكاد المرء يصدق أن هذا الخضم الضخم من المياه كله مياه نهرية عذبة من نهر واحد هو نهر (الفولغا).

وقد ورد إلى ذهني سؤال يقول: لماذا لم يجففوا هذه الأراضي عن طريق تعميق هذه الفروع من النهر بحيث تجف الأماكن الضحلة فيكتفون ضررها وتزيد من الرقعة الزراعية في بلادهم إذا كانوا بحاجة إلى زيادة.

ورأيت وأنا أتساءل هذا التساؤل أن المنطقة التي تحيط بهذه الفروع الضخمة من مياه النهر هي منطقة صحراوية أو شبيهة بالصحراوية تشتد حاجتها إلى الماء.

وبينما كانت الطائرة تمعن في الهبوط كانت المستنقعات تحتها تتسع، وفرع ضخم من الفولغا يعادل نهر النيل أو يزيد عليه في السعة يتضح مجراه غير مبال بالمئات من الفروع أو الأنهار الأخرى التي اشتقت منه، أو استقلت عنه. وشاهدنا المدينة على ضفة هذا الفرع الضخم من الفولغا.

وكنت أعجب من هذه الأنهار الكثيرة المتفرعة من نهر (الفولغا)

على هذه الهيئة الغريبة وكاد ذلك يستغرق تفكيري كله، غير أن تفكيراً آخر زاحمه وهو التفكير في ماضي هذه المدينة التي نحن مقبلون عليها، وكيف كانت عاصمة إسلامية تشد إليها الرحال، ثم خرجت من أيدي المسلمين فلم يكفها ذلك حتى عدا الدهر على أهلها المسلمين الأولين ذوي الأمجاد التي تملأ الأسفار، وتبهر الأنظار.

وأسرعت الطائرة تهبط في المطار.

مطار استراخان:

كان هبوطها في الثانية عشرة إلا الثلث بتوقيت سمارا التي قدمنا منها ويوافق الحادية عشرة إلا الثلث بتوقيت استراخان الذي يتأخر ساعة عن توقيت سمارا. وذلك بعد طيران استغرق ساعتين وثلثاً.

المطار لا بأس بسعته لكن كل ما فيه قديم يحتاج إلى تجديد، ومدارجه فيها أعشاب غير ريانة، وإن كانت كثيفة، مما يدل على أنها كانت قد شهدت وقتاً مطيراً ثم توقف المطر عنها.

وتكرر وجوب نقل أمتعتنا بأيدينا فأنزلناها من الطائرة ووضعناها في حافلة لركاب الطائرة أعفتنا من حملها إلى مبنى المطار.

لم يكن في استقبالنا أحد في المطار، إذْ لم نستطع الإتصال بأحد نخبره بقدومنا فهاتف مدير الإدارة الدينية في استراخان لم يرد عندما حاولنا الإتصال به كما جهد الأخ واعظ مفتي سمارا أن يتصل بأي شخص فيها يخبره بقدومنا فلم يستطع، ولم تسبق لأي واحد منا زيارة استراخان. لذلك لا نعرف فيها أحداً ولا نعرف حتى اسم الفندق الذي سنذهب إليه، فطلب الأخ المفتي من أسرة رآها مسافرة بالطائرة معنا أن تهتم بنا وأن تطمئن على وصولنا الفندق في استراخان وهي أسرة مسلمة مؤلفة من سيدة وإبنتها وحفيدتها. وقد قاموا بذلك إذْ وجدنا رجلاً وشاباً في انتظارهم فصحبونا بسيارة أجرة حتى نزلنا في الفندق الذي يعرفون.

تركنا مطار استراخان إلى المدينة التي لا تبعد عنها كثيراً مع طريق غير جيد تباريه أعمدة الخشب التي تحمل أسلاك الكهرباء ذات الضغط غير العالي ولكنها خطرة، ولأول مرة في رحلتنا هذه في جنوبي روسيا نرى سقوف بعض البيوت مسطحة وليست مسنمة، وهذا يوحي بأن البلاد ليست كثيرة الأمطار، مع أن أرضها فيها عشب كثير، ولكنه جاف، ولاحظنا هنا أن البيوت المنفردة ما بين المطار والمدينة ذات أسوار من العيدان أو ألواح الخشب يصفونها صفاً يكاد يكون ملتحماً، ولا يكون شديدة الإرتفاع.

مدينة استراخان:

وصلنا المدينة بسرعة لكونها لا يبعد عنها مطارها إلا بستة كيلومترات. فرأينا أول ما رأيناه من ضواحيها خطوط القطار الكهربائي القصير (الترومواي)، ثم الأبنية الشيوعية وهي (العمارات) الضخمة العالية التي تبنيها الحكومة من أجل الإسكان الشعبي، والشارع الرئيسي فيها الذي دخلنا منه إلى المدينة لا يقارن بمثيله في مدينة (سمارا) فذاك أفخم وأطول وأحسن تنظيماً وأكثر جمالاً.

وعرفت أن البلاد حارة في الصيف من رؤية أكوام من البطيخ الأخضر وهو الحبحب أو الجح، وكذلك من البطيخ الأصفر وهو الشمام معروضة للبيع بكثرة على رصيف الشارع وكثرتها لا تكون إلا في بلاد حارة في الصيف، وكذلك الطماطم معروضة مع نساء ورجال للبيع جزافاً على الطريق.

ثم وصلنا إلى حي في داخل المدينة شعبي ذي بيوت قديمة من الخشب المسنم السقوف، وفي داخل المدينة كثرت البيوت القديمة المبنية من الآجر وأكثرها من طابقين.

ومررنا بمجرى مائي يشبه النهر الصغير بين البيوت وهو أكبر من نهر بردى مرتين مع أن المدينة نفسها واقعة على الضفة الغربية من نهر الفولغا.

وكذلك رأيت بحيرة مستطيلة في حي يظهر أنه قلب المدينة القديم.

وعلى شارع الشاطىء شاطىء نهر الفولغا دخلنا فندق لوتوس فكان الأخ الذي جاء معنا من المطار وهو من أهل هذه البلاد يترجم ما بيننا وبين عجوز روسية كانت في مكتب الإستقبال في الفندق فيترجمه للتتارية التي يفهمها رفيقنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله.

وهذه المرأة أنموذج للروسيات العاملات في الفنادق اللاتي لاحظت أن عددهن بدأ بالتقلص في روسيا، فهي غليظة الجسم ثقيلة جداً. وهي مقطبة الأسارير، عابسة الوجه، كأنها تمن عليك حتى بالكلام.

والغريب أن أهل هذه البلاد قد ألفوا المعاملة الخشنة، حتى صاروا يعتبرونها طبيعية ولا يستنكرونها.

ثم الإجراء البطيء للدخول في الفندق، فقد مللت من الجلوس في انتظار انتهاء إجراءات الدخول فخرجت إلى باب الفندق لأتأكد من منظر صبيان متشردين لمحت وجودهم عند باب الفندق وهم أول أطفال مشردين أراهم في روسيا، وإن كان الكلام عن أطفال مشردين في موسكو كثير، غير أنني لم أر ذلك بنفسي وربما كان مرد ذلك إلى قصر المدة التي بقيناها في موسكو هذه المرة وهي يوم واحد.

كما رأيت عند باب الفندق ثلاث نساء عليهن هيئات الغجريات وهن يسألن ويتكلمن مع الناس بما ظننت أنه الإخبار عن المستقبل بزعمهن.

ومن البطء في الإجراءات أن موظفة الفندق صارت تمضي وقتاً طويلاً في تأمل جوازاتنا، فتتأكد من كل ما فيها ثم تقيد ذلك بيدها في دفتر عندها ثم تعود إلى الجواز الثاني وهكذا.

وطلبت كغيرها من أرباب الفنادق في روسيا أن ندفع الأجرة قبل أن تعطينا الورقة التي تخولنا أن نأخذ مفاتيح الغرفة من موظفة الطابق الذي نسكن فيه.

ثم صعدنا إلى الطابق الخامس حيث أعطونا الغرف وفيه كالمعتاد مكتب يعنى بشؤون الطابق ومن ذلك مفاتيح الغرف فلم نجد الموظفة المسؤولة عن الطابق على مكتبها، ولم نجد من نسأله عنها إلا نزيلاً قال إنه لا يعرف.

ثم جاءت وهي روسية ثقيلة أيضاً فأعطتنا المفاتيح ولا تعطي المفاتيح لشخص إلا إذا أعطاها الورقة التي أعطته إياها موظفة الإستقبال، حتى إذا غادر الغرفة أخذت منه المفتاح وأعطته الورقة وهكذا.

وجدنا الغرف مماثلة لغرف الفنادق التي سميتها الشيوعية لأنها تكاد تكون طرازاً واحداً في كل مدن الإتحاد السوفياتي السابق فالفندق منها مثل فندقنا هذا يكون كبيراً ذا طبقات عديدة، وغرفة ضيقة لكنها مؤسسة ليكون بعضها غرفاً لشخص واحد كالتي أنزلونا فيها وفي الغرفة حمام خاص لا بد أن يكون فيه شيء يحتاج إلى إصلاح، ولا بد أن يكون فيه شيء قد أصلح إصلاحاً مؤقتاً، وكذلك أسلاك الكهرباء لا بد أن يكون فيها تسليك خارجي لأن الأسلاك التي في داخل الحيطان إذا خربت مدوا عوضاً عنها أسلاكاً خارجية فيبدو الأمر وكأنما هو مؤقت عندهم.

وفي الغرفة مكتب وخزانة ملابس خشبية لا تغلق أبوابها بسهولة وسرير واحد ضيق ذو وسادة مربعة.

ومن الطريف أن الموظفة في هذه الطبقة، جاءتني تحمل في يدها بقية لفافة من ورق التنظيف من الحمام (ورق التواليت) وصابونة صغيرة وهي تريني أنها تضعها في الحمام كالممتنة عليَّ بذلك.

وتطل غرفتي على نهر الفولغا العظيم وليس هو على عظمته إلا الفرع الرئيسي من النهر بعد أن تفرعت منهم مئات الأنهار والنهيرات في المنطقة. كما تطل نافذة أخرى في الفندق على مبانٍ حمر قديمة من مباني استراخان.



نهر الفولغا صورة التقطها المؤلف من نافذة فندق لوتوس

وقبل أن نستقر في الفندق أخذنا بالبحث عن دار الفتوى لمقابلة المفتي فذهب الأخوان عضوا الوفد وهما حسن بن علي أزمرلي، ورحمة الله بن عناية الله، مع الشاب الذي كان معنا إلى دار الفتوى فوجدوا شخصاً ذكر أن المفتي يأتي في الساعة الخامسة بعد الظهر.

وعلى ذكر الظهر أقول: إن الجو كان حاراً لا سيما داخل الغرف حيث لا مراوح ولا مكيفات حتى إذا ما فتح المرء باب النافذة وباب الغرفة لكي يدخل الهواء لم يأمن أن يدخل إلى غرفته سكران أو فضولي.

وقال ذلك الشاب الذي جاء معنا من المطار: إن الجو هنا كالبلاد العربية وإن درجة الحرارة تزيد في بعض الأحيان على ٤٠ درجة.

وقد تمنينا في هذا الفندق أن نحصل على مروحة يدوية من الخوص تبدد ثقل الجو كما يكون في البلاد الإفريقية وذكرت فندقنا الذي كنا فيه البارحة في (سمارا) وكيف أننا نزلنا في جناح جيد مريح بأجرة زهيدة ولكن أجرة فندق استراخان هذا لائقة به وهي (١٠٠) ألف روبل أي ٢٢ دولاراً أمريكية مع أنه أحسن فندق في المدينة كما أخبرونا.

ولاحظت وجود باب إضافي في النافذة ليس فيه زجاج وإنما هو من سلك دقيق يمنع دخول البعوض فصارت النافذة فيها ثلاثة أبواب اثنان من زجاج واحد خلف الآخر، وهذه هي عادتهم في كل البلدان الباردة في شمال أوروبا وشرقها تفادياً للبرد في الشتاء، لأن الزجاج الواحد يتسرب منه البرد ولكن وجود باب من السلك الدقيق على هيئة شباك هو أمر جديد عليَّ لم أره إلا في هذا الفندق. وهو يوحي بما رأيته من الطائرة من وضع المياه الراكدة والمستنقعات التي قد يتربى عليها البعوض وغيره من الحشرات الطائرة التي تضايق الإنسان، وقد تجلب له الأمراض.

وقد حان موعد الغداء والمفتي لن يحضر إلا في الخامسة لذلك نزلنا إلى مطعم الفندق وهو كالفندق كبير وفيه شرفة على شارع الشاطىء يرى منها النهر وما حوله، وجاءت عاملة شابة أصلها من التتار أهل البلاد المسلمين فكلمها الأخ رحمة الله بلغتها فلم تفهم إلا بصعوبة ولكنها فهمت أننا مسلمون لا نريد أن يقرب الخنزير طعامنا. وإنما نريد سمكاً فجاءت به، فسألت بعفوية عن نوع الخمر الذي نريد، فزجرناها وقلنا لها: ألم نقل لك أننا مسلمون؟ ولكن ظهر أنها لم تكن تعرف أنها حرام في الإسلام لأنها لا تعرف شيئاً عن دينها بسبب التربية الإلحادية التي فرضتها الشيوعية على أهل هذه البلاد.

ثم جاءت بالسمك جيداً لحمه فيه رخاوة مما يدل على أنه سمك نهري وقالت: هو بالفعل من نهر الفولغا مع العلم بأن نهر الفولغا يصب في بحر الخزر المعروف الآن ببحر قزوين غير بعيد من مدينة استراخان. فهو متصل به، ولذلك يوجد سمك الكافيار في النهر لأنه ينتقل من البحر إلى النهر.

ومع السمك صحن سلطة من الطماطم والخيار والفلفل البارد وكله ما تنتجه هذه البلاد وليس مستورداً كالبلاد التي قدمنا منها في جنوب روسيا.

كما أحضرت الفاكهة بعد الطعام بطيخاً جيداً وهو الحبحب عندنا.

كان الغداء في شرفة الفندق التي تطل على النهر أفضل من داخل الفندق حيث لا يوجد فيه تكييف ولا مراوح إلا أن الذي ضايقنا أن بعض الشحاذات كانت تقف بإزاء مائدتنا وتمد يدها بالاستجداء. وهي امرأة ظاهر من هيئتها أنها ليست من أهل هذه البلاد. والغريب أن السماء غامت بعد الظهر، ولكن الجو لا يزال حاراً.

وأذكر أن أصعب ما في هذه الفنادق الشيوعية أن فتحها وإغلاقها يكون صعباً في أكثر الأحيان لأن أقفالها تكون قديمة ولا تستبدل بجديد، وإنما يحاولون إصلاح القديم إصلاحاً غير كامل.

وأذكر أن رفيقنا في الوفد الأستاذ حسن بن علي ازميرلي كان بحاجة إلى غرفته بعد أن فرغنا من الغداء في مطعم الفندق فعجز عن فتح غرفته فنادى الموظفة وتعتبر بمثابة المدير لهذه الطبقة من الفندق، فحاولتِ فتحها فلم تستطع، ثم نادى عاملاً في الفندق متفرغاً لمثل هذه الأمور فعالج الباب فترة حتى فتحه. وقال يحتاج القفل والمفتاح إلى الحك بالمبرد.

ولا شك في أن هذا الفندق بموقعه الفريد على شاطىء الفولغا وبهندسته بحيث بني ليكون فندقاً لو أتيح له شيء من الترميم والتحسين بتغيير كل ما هو قديم غير صالح، ومن بين ذلك إدارته الهرمة لكان جديراً بأجرة تزيد على أجرته الحالية التي هي ٢٢ دولاراً خمسة أضعاف. ولو لم يكن فيه إلا نافذته العريضة التي شملت كل جدار الغرفة، وكلها من زجاج شفاف بعضها ثابت، وبعضها يُغلق ومتعة مشاهدة النهر منها ورؤية القوارب والسفن وهي تمخر عبابه وترسي في مرسى صغير أمام باب الفندق لتحمل صاعدين وتنزل راكبين، ممن يتخذون من هذا النهر وسيلة للنقل مثلما نتخذ نحن من الحافلات وسائل للنقل في البر.

إلى قرية فالنكا:

حضر إلينا في الفندق في الخامسة مفتي استراخان الشيخ ناظم بن الياس آق تاج ويسمونه اختصاراً ناظم بيك، وآق تاج بمعنى التاج الأبيض وهو تتاري أبوه من تتار قازان، وأمه من تتار ستراخان. وبعد جلسة تعارف قصيرة أخذنا بالسيارة إلى قرية (فالنكا) التي تبعد ١٣ كيلومتراً من استراخان جهة الجنوب. وذلك ليرينا مسجداً يشاد فيها، ولكن العمل توقف فيه لقلة النقود، ويعرف المفتي شيئاً قليلاً من العربية لا يكفي للتفاهم معه مثله في ذلك مثل مفتي (سمارا) بخلاف مفتي أورونبورغ الذي كان مثلهما في عدم إجادة العربية فحصل على منحة من سلطنة عمان لدراسة العربية هناك لمدة أربعة أشهر. فكان أن حسن فهمه للعربية، وإن كان الكلام بالعربية لا يزال صعباً عليه.



المؤلف فوق أطول جسر في أوروبا

خرجنا من فندقنا الواقع على الضفة الغربية لنهر الفولغا فصعدنا فوق جسر طويل جداً على النهر حيث توجد فيه جزيرة صغيرة امتد الجسر فوقها لكونها ضيقة عن أن يقام فوقها خط اسفلتي لامتداد الجسر.

وهذا الجسر يعتبر عريضاً إلا أنه واحد تتقابل فيه السيارات يفصل بين الذاهبة والآيبة منها خط أبيض وعلى جانبيه ممر للمشاة محجوز بينه وبين الشارع بحاجز حديدي.

وبدا نهر الفولغا في هذه المنطقة كأنه نهران متجاوران كل واحد منهما أعرض من النيل والواقع أنهما يلتقيان بعد الجزيرة وكانا نهراً واحداً قبل ذلك.



امرأة تسير على قدميها فوق أطول جسر في أوروبا

وصلنا قرية (فالنكا) بسرعة، فوقفنا عند مسجدها الذي هو غريب الطراز تركبه قبة رأيناهم يعملون في الكتابة عليها فكتبوا أسماء الأنبياء والمرسلين وأولهم آدم عليه السلام، ثم نوح عليه السلام، ثم إدريس عليه السلام، وينوون أن يكتبوا مع أسماء الأنبياء أسماء الخلفاء الراشدين الأربعة، ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة رضوان الله عليهم.

والمسجد مبني بالآجر والخشب، وهو ذو محراب معتاد ويقع موقعاً مرتفعاً من القرية بحيث صارت منارته ترى من مسافات بعيدة، قال لنا المفتي: يأتي الناس إليه بالسيارات يوم الجمعة لعدم وجود مساجد تقام فيها الجمعة قريبة منهم.

وقد حضر إلينا بعض جماعة المسجد والقائمين عليه.

ولم يعرف المفتي ولا الشخص الذي حضر وذكر أنه من أهل القرية عدد السكان فيها، وإنما ذكروا أنهم في حدود (٢٥٠٠) نسمة وأكثرهم مسلمون من التتار والقازاق والتركمان.

وبيوت القرية أكثرها حديث وكلها مبنية بالآجر الأبيض والأحمر.

لم يفهم المفتي الشيخ (ناظم بيك بن آق تاج) ما نرمي إليه في أول الأمر وهو أننا نريد أن تجمع زيارتنا بين الفائدة الخاصة والعامة التي هي الإطلاع على المساجد والمدارس التي توقف البناء فيها أو هو مهدد بالتوقف بسبب العجز عن النفقة بغية تقديم مساعدة عاجلة لاستمرار العمل فيها، وتسجيلها لدينا في رابطة العالم الإسلامي استكمالاً لسجلاتنا التي تتعلق بالمساجد والمدارس الإسلامية وبالجمعيات والشخصيات المسلمة في أنحاء العالم، وظن المفتي أننا لا نريد أن نعرف إلا ما يتعلق بذلك، لهذا لم يكن يلقي بالاً في أول الأمر لأسئلتنا حول الشؤون العامة في البلاد، وحتى حول ما يتعلق بالإدارة الدينية. وقال بامتعاض: لقد زارنا أناس من العرب أتوا إلينا من موسكو ووعدونا بالمساعدة ولم يتحقق من وعودهم شيء.

حتى قال: إن مندوباً من السفارة السعودية في موسكو زارهم ووعد بالمساعدة على بناء مساجد ثلاثة، ولم يقل إنه لم يف بوعده لأنه لم تمض على زيارته إلا مدة قصيرة.



في محراب مسجد فالنكا مع مفتي استراخان الشيخ ناظم الياس آق تاج

إن ما قاله هو الذي جعلنا نحرص على أن يكون معنا شيء من المعونة العاجلة لإخواننا مساعدة على مشروعاتهم الإسلامية التي ينفذونها من أجل أن يصلهم النفع العاجل، حتى إذا كان المشروع كبيراً ويحتاج إلى معونة أكبر مما نحمله فإننا نكتب عنه تقريراً نبقيه في الرابطة لنكون على علم به ونلاحظ مساعدته في المستقبل.

ريف استراخان:

قال لنا الأخ المفتي وهو يسرع في أمره كله من التفكير إلى الكلام إلى الحركة: إننا سنذهب الآن إلى قرية أخرى فيها مسجد، ووقف العمل فيه لقلة النفقة، وهي قرية أبعد من هذه القرية عن المدينة.

فعاد بنا إلى المدينة من دون أن نمر بالفندق، وإنما ذلك لكون الطريق إلى القرية لا بد له من المرور بالمدينة للخروج إليها.

فركبنا الجسر الطويل الذي قدمنا معه، ورأينا المشاة فيهم كثيري العدد رغم طوله، وبعضهم يشير للسيارات المارة لتحمله، ولكنني لم أر الإستجابة لهم كثيرة.

وخرجنا من المدينة إلى الريف من دون أن يشرح لنا أحد ما نمر به فسلكنا طريقاً اسفلتية ضيقة، وقد بعد عهدها بالصيانة، بل والترقيع لأن فيها نقراً صغيرة تحتاج إلى ذلك، والسمة الظاهرة لهذا الريف هو الجفاف، ويعد العهد بالمطر بالنسبة إلى الأرض الندية الخضراء في سمارا، ومع ذلك رأينا في هذا الريف مزروعات وأشجاراً مما يكون في بلداننا العربية ذات الخيرات والبركات مثل التفاح والتوت حتى إن بعض بيوت الريف مسطحة السقوف مثلنا، رغم كونها بلاداً يسقط عليها ثلج كثير في الشتاء حتى يتجمد نهرها العظيم (الفولغا) فتسير فوقه السيارات، ومظهر الريف هو مظهر الأرض الزراعية التي فيها طين كثير ربما كان ذلك من الطمي الذي تجلبه إليها روافد نهر الفولغا.



ريف استراخان

ووصلنا إلى قطعة من الطريق قد تشعثت فنثروا فوقها الزفت نثراً من دون رص أو تثبيت فصار يتبدد مع سحق عجلات السيارات.

ثم وصلنا إلى أرض منخفضة فيها حقول الأرز الأخضر، وفيها مستنقعات مياه عديدة، ثم زادت خضرة الريف، وقال الأخ المفتي: كل ما ترونه من نهر الفولغا، إنه يتفرع فروعاً كثيرة كالأنهار والقنوات فيزرع عليه الناس كان هذا في القديم، ولا يزال هذا دأبه الآن.

نهر كلبخي:

وقفنا عند نهر من أنهار الفولغا العديدة اسمه كلبخي، وقد عجبت

من وجود هذا النهر المغمور الذي لم ينوه بوجوده هنا أحد، ولا حتى المرافقون لم يقولوا: إننا سنجتاز هذا النهر، وهو نهر كبير أظنه يصل عرضه وعمق مياهه إلى أكثر من نصف نهر دجلة.

وقال المفتي بهذه المناسبة: إن فروع نهر الفولغا يتجاوز عددها الألف!!!

وقفنا عند النهر مع سيارات واقفة في انتظار عَبَّارة تنقل الناس والسيارات من ضفة النهر إلى الضفة الأخرى ولكن موقف السيارات كان غريباً فهو ترابي بل ذو تراب دقيق إذا سار عليه الإنسان فضلاً عن السيارة ملأ الجو الذي حوله بالغبار، وضفة النهر وما حولها من مكان العبارة وغيره منها في نهاية القذارة والإهمال، ولولا هذه السيارات القليلة والعبارة غير النظيفة التي تسير بالمحرك لقلت إنه على ما كان عليه في العصور السحيقة. وقد رأيت على الضفة بقايا أخشاب عديدة نخرة قد تركت فلم تجد من يبعدها أو حتى يحرقها وهي في مكانها.

وعجبت من دولة كبرى تعد نفسها في مصاف الدول المتقدمة وتعدنا وأمثالنا من الدول المتخلفة كيف ترضى بهذا الإهمال لنفسها، ولشعبها التي تقول: إنها تمثله.

واسم النهر هذا (كلبخي) هو قديم من قبل وصول الروس إلى المنطقة وقد غير الروس اسمه إلى (تراماي فولغا) ولكن الأهالي ظلوا يستعملون الاسم القديم.

ويبعد عن مدينة استراخان (٣١) كيلومتراً.

ولكثرة المياه في المنطقة رأيت أنبوباً ضخماً يصب في النهر مياه الصرف الزراعي وهو ما يزيد من المياه بعد ري الأرض، ولا شك أن هذا يلوث النهر، ويذهب نقاءه، لأن هذه المياه تكون ملوثة ببقايا الأسمدة ومبيدات الحشرات السامة. وكلها مواد ضارة بالصحة ولا أدري أيستعمل شيء من مياهه للشرب بعد معالجتها أم لا.



مرسى العبارة على نهر كلنجي

وقد شمل الإهمال ضفتي النهر فخلتا من الزراعة تماماً فضلاً عن خلوهما من التجميل، حتى لا يوجد أشجار مغروسة عليهما وإنما توجد أشجار ضخمة قليلة من الأشجار التي تستطيع الصمود أمام طغيان الماء وقت الفيضان، وحتى الأعشاب في الأرض الملاصقة تماماً للنهر غير موجودة لكون الماء يغمرها في بعض الأوقات.

والشيء الغريب أن طريق دخول السيارات إلى العبارة وخروجها منها غير مزفت وإنما هو طيني خالص تتطاير منه سحب الغبار. مما جعل لون العبَّارة نفسها باهتاً لما ركبها من غبار الضفة. وقد ابتعدنا عن العبَّارة عندما وصلت إلينا، لأن السيارات التي كانت فيها عكرت الجو بالغبار عند خروجها منها.

ولو كان هذا الغبار معتاداً لما تحدثنا عنه كثيراً، ولكنه دقيق ومؤذ بحيث أننا كلنا شعرنا به في حلوقنا وأنوفنا.

وعندما وقفت العبارة في الضفة التي نحن فيها صعد إليها سبع سيارات وعدد من المشاة ليس كثيراً وذلك لسرعة ترددها وقلة السيارات قلة نسبية في هذه البلاد.

قرية كلنجي:

وصلنا القرية التي نقصدها وتقع على الضفة الأخرى من نهر (كلبخي) الذي عبرنا فوقه، وقصدنا بيت رئيس القرية وهو من المسلمين من أجل أن يذهب معنا إلى المسجد الذي يبنيه أهل القرية، ويحتاجون إلى مساعدة على ذلك.



بيت تقليدي في قرية كلنجي

ويقع بيته على ميدان صغير في القرية الصغيرة أقاموا فيه نصباً تذكارياً لانتهاء الحرب العالمية الثانية، وهو بيت تقليدي منفرد مثل أكثر بيوت القرية التي يبنونها من الخشب أو الآجر، وأحياناً يستعملون الآجر في بناء الحيطان الخارجية للبيت وباقيه من الخشب وكل بيوتها المنفردة ذات سقوف مسنمة.

وقد التقطت صوراً لبعض البيوت في القرية بينما كان رئيسها الأخ (جودت علي) يستعد للذهاب معنا. ثم خرج إلينا فرأيناه أسمر اللون بالنسبة إلى بياض أهل البلاد القريب من بياض الأوروبيين وإن خالفوا الأوروبيين في الملامح أما هو فإن ملامحه تبدو أقرب إلى الملامح العربية. ولكنه لا يعرف ما إذا كان أصله عربياً. ثم ركب سيارته وتقدم سيارتنا حتى وقف عند منزل آخر من منازل القرية.

ولاحظت أن سكان القرية يصح أن يسموا بالتتار، وكذلك اسمهم الآن، مثل أقوام أخرى يسمون التتار، وليست لهم علاقة نسب ولا شبه بالتتار المغول، فأهل استراخان المسلمون فيهم طوائف تظهر في وجوههم الملامح المغولية ممزوجة بالملامح التركية الأصيلة التي هي ملامح أهل بلاد التركستان أو قل إنهم أقرب الناس ملامح إلى القازاق والقازاق الذين نسبت إليهم جمهورية قازاخستان هم ذوو ملامح تركية قديمة ممزوجة بملامح مغولية، وذلك لكون بلادهم تقع قريباً من بلاد التركستان بل هي تجاورها، كما أنهم يجاورون بلاد المغول.

أما منازل القرية فإنها ما بين بيت مبني بلبن الإسمنت وآخر مبني بالخشب على الطريقة القديمة التقليدية في هذه المناطق الروسية.

ويدل على ميل الجو إلى الدفء بالنسبة إلى المنطقة، أننا رأينا عرائش العنب في أفنية بيوت القرية.

كنا نقف في الشارع الرئيسي من القرية ووسطه مزفت تزفيتاً رديئاً وجانباه ترابيان تثير السيارات إذا سارت عليهما سحباً من الغبار، وأما

الباحات وهي هنا مجرد أماكن متسعة من القرية تشبه الميادين فإنها خالية من العناية، بل هي مهملة إهمالاً كاملاً حتى إن بعض الأشياء التي لا ينتفع بها متروكة فيها.

مسجد كلنجي:

بدا لنا مسجد كلنجي عندما أقبلنا عليه فخماً لا نتصور وجود مثله في هذه القرية الصغيرة نسبياً فقد بنيت دعائمه من الإسمنت المسلح، أما حوائطه وسائره فمبني بالآجر.

وقد رفعوا سقفه رفعاً شديداً.



وفد الرابطة مع المفتي وأهل قرية كلنجي داخل المسجد

وجدنا رئيس جمعية المسجد، ويسمونه هنا (رئيس متولي) أي الرئيس المتولي أمور المسجد أو رئيس المتولين شؤون المسجد واسمه (قوسلو محمد عبد الرحيم) وهو تتاري سألناه عن اسم المسجد وقد انضم إلينا جماعة من أهل القرية عند المسجد، فذكر أنه ليس له اسم، لأنه المسجد الأول وهو الوحيد الذي بني في القرية بعد سقوط الشيوعية.

وكان في القرية ثلاثة مساجد هدمها الشيوعيون كلها ولم يبقوا فيها أي مسجد.

وحضر إمام المسجد واسمه (ناصر بن يوسف علي) وهو مسن تبلغ سنه قرابة تسعين سنة، وله نائب اسمه: (مقصود مراد علي اوغلو).

المسلمون في كلنجي:

جرى حديث عن المسلمين في القرية لمناسبة الحديث عن المسجد فكان من حديث ذلك أن سكان القرية يبلغ عددهم أربعة آلاف نسمة ٩٠٪ منهم من المسلمين، وأغلب المسلمين فيها هم من التتار.

وتقع القرية جنوباً من مدينة (استراخان).

وذكروا أن نفقات بناء المسجد جمعوها من تبرعات الأهالي التي هي قليلة ومن إدارة القرية. وهي إدارة حكومية، كما حصلوا على تبرع قليل من بعض الأشخاص من تركيا وشكوا من أن قلة النفقة وقفت بهم الآن عن المضي في عمارة المسجد.

وقد رأينا رسومات المسجد ومخططاته وأنه ستكون فيه قبة مميزة ومنارة يبلغ ارتفاعها ٢٤ متراً. وارتفاع سقف المسجد ثمانية أمتار ونصف.

وأرض المسجد واسعة مسورة كلها بسور محكم لا يدخل إليها إلاً من باب حديدي، وتبلغ مساحة الأرض المسورة ١٥ ألف متر مربع، ولذلك يأملون إذا نجحوا في بناء المسجد أن يبنوا فيها منشآت أخرى كالمدرسة.

وقد حصلوا على الأرض كلها بالمجان، منحتهم إدارة القرية إياها بدون ثمن. .

وعندما أبدينا إعجابنا وارتياحنا لحصولهم على هذه الأرض الواسعة ضحك المتولي الأخ (ڤوسلو محمد عبد الرحيم) وقال: في القديم لم تكن الأرض تباع، وإنما ينتفع بها في المرافق العامة واليوم أصبح لا يمكن الحصول عليها إلا بثمن غالٍ!



مسجد كلنجي تحت البناء

ولقد تملكني العجب والإعجاب من علو همم هؤلاء الإخوة وهم يعيشون في قرية منعزلة تابعة لإقليم منزو ناءٍ في جنوب جمهورية روسيا

الإتحادية وقد رسموا للمسجد أن يكون على ما ذكروه من الفخامة والروعة. وقد رأينا ما أنجزوه منه يشهد بذلك حتى غدا على ما هو عليه الآن أعلى بناء وأكبره في القرية وهو لم يسقف بعد، ودلنا ذلك على قوة إيمانهم بل دلنا على أن الإسلام محفوظ بحفظ الله، حتى إذا قصر بعض أهله في القيام بما يأمرهم الله به نحوهم فإن الله سيبعث لدينه ناصراً، وسيجعل له أنصاراً من غيرهم. قال تعالى: **﴿وإنْ تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم﴾**.

وبينما كنا عند المسجد وكان الجو قد غام وبرد الهواء تساقط المطر ولكنه لم يستمر.

وقد وعدناهم بالإسهام إسهاماً عاجلاً بمبلغ رمزي من المال، سوف نصرفهم لهم إذا حضروا كلهم لدار الفتوى في استراخان وأحضروا أوراق جمعية المسجد وأختامها. وسوف يخبرهم المفتي بالموعد إذا تحدد.

وذلك أننا نحرص على أن يكون تسليم المساعدات للجهات التي نساعدها في كل بلد آخر عمل لنا فيه، بحيث نصرفها ونسافر بعد ذلك احتياطاً للأمن.

ثم قمنا بجولة سريعة على القرية التي رأينا بعض الشوارع الرئيسية فيها مزفتاً ولم أر فيها من المناظر ما يحسن ذكره سوى أن بعض ربات البيوت قد جلسن أمام بيوتهن يدفعهن إلى ذلك طيب الجو في هذا الأصيل بعد الحر في وسط النهار وأننا رأينا فيها ماشية من ماعز أبيض وبقر يرعى في أطراف القرية وهو شبعان منتفخ البطون.

ثم صحبنا رئيس القرية إلى العبارة وودعنا بعد أن التقطنا معه صورة تذكارية.

وقد عجبت حين رأيت العبارة تتردد فوق صفحة هذا النهر الذي هو غير عريض وقلت في نفسي: إنه لو كان مثل هذا النهر في بلاد متخلفة لسعى أهلها في الحصول من بعض الدول التي ربما تكون بينها روسيا

نفسها على قرض لإقامة جسر عليه لو لم يكن فيه من الحسنات إلا المحافظة على أوقات المواطنين من مشاة وأصحاب سيارات عن الإنتظار وإنفاق وقت ثمين حتى تصل العبارة وإذا وصلت فإنها تظل دقائق قبل أن تقلع ثانية حتى ولو فرض أنها كانت قد استكملت حمولتها. فالمقرر لها أن تقلع بعد مضي الوقت المحدد ولو بحمولة قليلة من الركاب والسيارات.



صورة تذكارية مع أهالي قرية كلنجي في أحد شوارعها
والمؤلف بين المفتي (على يمينه) ورئيس القرية على يساره

العودة إلى استراخان:

تركنا قرية كلنجي في السابعة والثلث عصراً لأن الشمس تغرب في التاسعة إلا خمس دقائق.

وقد انصرفنا ونحن نحس بالغبار في حلوقنا وأنوفنا وعيوننا فأسرع السائق بسيارته وهي من طراز (لادا) الروسي الصغير الذي يشبه (الفيات) الإيطالية والطريق مزفت فأطار بعض ما علق بنا وبسيارتنا من غبار، غير أن الشاحنات الخشنة التي كانت تقابلنا فيضيق بها الطريق أو يخشى سائقها أن يضيق. فيخرج عجلات جانب من جوانبها من الطريق المزفت كانت تثير في أكتاف الطريق غباراً جديداً عوضاً عن الغبار الذي طار.

ثم ودعنا المفتي وواعدناه صباح الغد إلا أنه اعتذر بأنه سيكون مشغولاً في أول النهار بتجهيز أحد أموات المسلمين، ولكنه سوف يبعث نائبه إلينا ليذهب معنا في جولة على ما نريد أن نراه من المدينة.

ثم كان العشاء في شرفة مطعم الفندق على سمك وسلطات وبطاطس وأما الشراب فإنه الكوكا كولا ولا شراب مباحاً غيره إلا أن يكون الماء الذي يسمونه معدنياً مع أنهم أضافوا إليه مقادير كبيرة من الغاز إضافة لا نستسيغها.

يوم الأحد: ١٨/ ٢/ ١٤١٦هـ ١٦/ ٧/ ١٩٩٥م:

صباح استراخان:

ظلت نافذتي مفتوحة طول الليل لا يغلقها شيء إلا باب السلك الذي يمنع دخول البعوض ولكنه لا يرد الهواء. وكان المنظر من خلالها سواء في النهار أو الليل بديعاً إذْ هو نهر الفولغا العظيم الذي كانت الحركة ضعيفة على شاطئه في النهار، ثم هدأت تماماً في الليل، فالشيوعيون أو لنقل: إنهم الموظفون في الدولة التي ابتليت بالشيوعية لا يسهرون في العادة لأنهم ليسوا أحراراً في مواعيد راحتهم وفي مواعيد عملهم. وكنت عرفت في البلدان الشيوعية التي زرتها ومنها الإتحاد السوفياتي السابق الذي خَلَفته روسيا الإتحادية أن الطعام محددة أوقاته أيضاً، فالغداء في الثانية عشرة والعشاء في السادسة، وأما الفطور فإنه في السابعة، إلا من كان في بيته المنفرد فإنه حر في وقت الفطور.

وقد بدأ نور الفجر في الإنبلاج مبكراً على عادة البلاد التي تميل إلى جهة الشمال، وحتى عندما غمر النور هذا الجزء من منطقة (دشت قفجاق) كما كان القدماء من مؤرخينا يسمونها أو (دشت قازاق) كما صار المتأخرون يدعونها ودشت: تعني الصحراء أو المفازة ولم يكن أحد يسير على شاطىء هذا النهر العظيم قبل طلوع الشمس.

وكان أولى المبكرين غرباناً كثيرة ظلت فترة تحجل على الشاطىء ربما كانت تبحث عن فضلات من أسماك أو غيرها مما يكون النهر قد قذفها على شاطئه كما كانت الغربان تفعل عندما تأتي مبكرة إلى شاطىء

البحر أو النهر. ثم خلا الشاطىء منها بعد حين، وكأنها استنفدت ما فيه من طعام أو حصلت على كفايتها منه.

وكان أكثر الأشياء حضوراً في خاطري وأنا أنظر إلى نهر الفولغا من نافذة الفندق قبل الفجر وبعده الأحزان المتجددة على ملك للمسلمين ضاع، وسلطان للإسلام ضيعه المسلمون حينما تقاتلوا وتخاصموا فأضعفوا أنفسهم على حين كان أعداؤهم وهم الروس في هذه المنطقة، يتقوون ويتحدون. ولم يكتف حكام المسلمين بذلك حتى أضعفوا أنفسهم إضعافاً مضاعفاً ذلك بأنهم ضيعوا ما أمرهم الله به من الحكم بالعدل، والأمانة في أداء الواجب وإلى ذلك أخذ بعضهم يكيد لبعض عن طريق الإتصال بأعدائهم الروس والإستظهار بهم ضد المخالفين من إخوانه حكام المسلمين الآخرين، فكانت النتيجة ما رأيناه اليوم وقبل اليوم من القهر الصليبي الروسي في عهود القياصرة الأوائل ثم القهر الإلحادي الشيوعي بعد ذلك والذي لم يكتف بالإبقاء على ما سلبه القياصرة من بلاد المسلمين حتى حاول أن يسلب منهم عقيدتهم وعاداتهم وتقاليدهم.

وقلت في نفسي من بين ما قلت: إنني أتمنى أن يبعث خانات المسلمين الذين كانوا يحكمون هذه البلاد ليروا ما فعله الزمن بأخلافهم، بل ليروا نتائج ما فعلوه بأنفسهم مما مكن الروس أن يسيطروا عليهم بالقوة والقهر منذ أربعة قرون ولا يزالون.

وقال لي العقل: إن الروس كانوا يأخذون بأسباب القوة من صنع السلاح، وتجييش الجيوش، ومن الفنون الحربية المختلفة: مما ليس عند المسلمين، فوجدتني أرد عليه قائلاً: ولم لم يفعل مثلهم بل أكثر منهم المسلمون؟

أيمتنع السلاح عن البقاء في أيدي المسلمين، أم يمتنع عن الإستجابة لما يريدون؟

كلا، وألف كلا فالعلة في المسلمين وليس في السلاح.

وإننا نقول ذلك الآن لأخذ العظة والعبرة مما حل بالمسلمين في هذه البلاد الشرقية، وهو شبيه بما حصل لهم في البلاد الغربية في الأندلس، وفي يوغسلافيا، قبل أن تولد دولة يوغسلافيا وفي رومانيا وبلاد البلغار بل في بلاد البلقان كلها.

إننا يجب أن نتّعظ بما حدث لئلا يحدث للمسلمين في الوقت الحاضر. وقد رأينا كيف حدث لهم مثل ذلك في فلسطين، وما يحدث الآن لهم في البوسنة والهرسك، وإذا لم يلتزموا بما أمرهم الله به من الإستعداد والإعداد للجهاد بالأنفس والأموال لاقوا الذل والإضطهاد، بل كان كثير منهم يؤثر الإخلاد إلى الشهوات والانكباب على الملذات وإنفاق المال في النزوات على إنفاقه في سبيل الله بل إن بعضهم أهملوا حتى ما يتعلق ببلادهم من أسباب القوة وصاروا يعملون في أسباب الضعف والهوان فلا حول ولا قوة إلا بالله.

جولة في مدينة استراخان:

الغريب أن أكثر أهل البلاد الأصلاء إن لم يكونوا كلهم يجهلون التاريخ الإسلامي لمدينتهم فضلاً عن إقليمهم، وذلك أن النظام الشيوعي الذي ران على البلاد نيفاً وسبعين عاماً قد حجب المعلومات الصحيحة عنهم فكان لا يسمح لهم أن يقرأوا وأن يسمعوا إلا ما أراد لهم. وهو لا يريد إلا أن يشعرهم بأن تاريخ الحضارة في بلادهم يبدأ من حيث بدأت الشيوعية.

ولذلك سألت كثيراً ممن التقيت بهم هنا عن أصل اسم المدينة (استراخان) فاختلفوا في تفسيره، فقال أحدهم: (استر) اسم ملك، فقلت له: وماذا تفعل إذاً بكلمة (خان) التي تعني الملك أيضاً، وأهل هذه المنطقة بالذات يسمون الملك بالخان؟ أتكون الخان استر؟

فسكت ولم يحر جواباً، وقال آخر: إن كلمة (استرخان) تعني سفرة

الأكل باللغة التتارية المتفرعة من التركية القديمة وعلى هذا يكون اسمها: مكان السفرة.



أحد أبراج الكرملين في استراخان

حضر إلينا في الساعة التاسعة من هذا الصباح نائب المفتي ليصحبنا في جولة على المدينة واسمه (رستم) وهو شاب لا يحسن من التحدث بالعربية شيئاً ذا بال مع أنه متخرج من مدرسة دينية ولكنها ضعيفة المستوى.

كانت أولى الوقفات في المرسى الذي يقع أمام فندقنا وهو على نهر الفولغا تتخذه السفن بمثابة المحطة للحافلات في البر. وقد استجلينا منه هذا الجزء من نهر الفولغا، ثم ذهبنا بالسيارة،

إلى الكرملين:

و(الكرملين) هو على لفظ (الكرملين) الذي في موسكو، وكنت استغربت وجود (الكرملين) في غير موسكو عندما رأيته في مدينة قازان عاصمة جمهورية تتارستان. وهو هنا على هيئة قلعة تسمى قلعة الكرملين وتؤلف مع ما بجانبها الأبنية المهمة التاريخية. ومما يؤسف له أن أهم مبنى وأكثره ظهوراً هو مظهر كنيسة ذهبية الأبراج كانت في الأصل مسجداً حوله الروس إلى كنيسة بعد أن احتلوا البلاد، وأسقطوا حكومتها الإسلامية وقد بنوا قلعة (الكرملين) في قازان بعد احتلالهم للبلاد بزمن طويل، وربما كان معنى الكلمة في الروسية القصر، فقد ذكر بعض علماء البلاد الإسلامية الشمالية وصف (قصر الكرملين) للكرملين في موسكو، ولكنهم ذكروه في معرض الكلام على عز المسلمين وقوة سلطانهم في تلك البلاد وهو أن الكيناز بمعنى الحاكم الكبير الذي يوليه الروس الحكم في موسكو لا تعتبر ولايته نافذة إلا بعد أن يصدر مرسوم من سلطان قازان بذلك.

فكان السلطان يرسل وفداً على مستوى عال إلى موسكو فتعقدُ حفلة في قصر الكرملين لهذا الغرض يقرأ فيها مرسوم سلطان المسلمين بتعيين الحاكم المذكور.

ولم أكن أعرف في بلدان المسلمين التي احتلها الروس وألحقوها ببلادهم إلاّ ذلك الكرملين الذي في قازان غير أنني رأيت اليوم (كرملين) آخر في استراخان هو أكبر وأعظم وأقدم من الكرملين الذي في قازان.

إلا أنه ينبغي أن يلاحظ أن قازان وأستراخان تشتركان في أنهما كانتا عاصمتين لدولتين إسلاميتين حاربتا الروس طويلاً.

ذهب بنا الأخ (رستم كامل) نائب المفتي بعد أن تشاور مع سائق سيارة أجرة كنا ركبناها إلى الكرملين فوجدناه أشبه بالقلعة القديمة التي اعتدنا على رؤيتها من عواصم ما وراء النهر ومدنها مثل بخارى وسمرقند

وقلعة حصار في تاجيكستان ويسمونها هناك (قهندز) وهي لفظة غير عربية لا يكفي أن تترجم بكلمة قلعة لأن القلعة في العرف صارت تطلق على المكان الحصين الذي يسكن فيه الجنود والمحاربون. أما القهندز فإنها تكون مسكناً للملك وحاشيته وجنده وقضاته ووجهاء بلده حتى العلماء والمعلمون الكبار يسكنون فيها لأنها تكون فيها مدارس وأهم القهندزات الباقية الآن على حالتها أو حالة تقرب من حالتها الأولى هي التي في (خيوه) في إقليم خوارزم من جمهورية أوزبكستان وقد وصفتها وذكرت ما شاهدته فيها في كتاب (يوميات آسيا الوسطى) المطبوع.



جانب من مدينة استراخان القديمة كما يرى من منطقة الكرملين

وكأنما أراد الروس أن يقلدوا المسلمين في هذا المجال فبنوا ما يحتاجون إليه من أبنية محصنة في منطقة عالية تشرف على مدينة استراخان القديمة وأداروها بسور حصين ضخم جعلوا الغرف وثكنات الجنود طبقتين إلى جانب الأبنية الضخمة المنفردة ومنها كنيستان شامختا البنيان.

كما جعلوا في وسطه ميداناً واسعاً وأغلق ببوابة ضخمة تشبه أبواب القلعة الضخمة القديمة فصاروا يغلقون ذلك على أنفسهم ويعيشون في معزل عن المواطنين. وكل ذلك كان في أول الأمر إلى أن وطدوا حكمهم وصار المسلمون لا يخيفونهم، ولا يخيفون غيرهم فتركوا السكنى فيها إلى غيرها وصارت الآن أثراً من الآثار القديمة. هذا مع أن الشيخ الرمزي فيما نقلناه من كلامه يذكر أن قلعة (استراخان) هي من أعمال المسلمين، وربما طورها الروس.

ترجلنا من السيارة ودخلنا إلى (الكرملين) من بوابته الضخمة حيث وجدنا على يسارنا كنيسة ضخمة جداً حتى إن الدرج الخارجي الذي يصعد منه إليها يساوي ارتفاع طابقين تقريباً، وقد رأيت سياحاً من كبار السن يصعدون معه لمشاهدة داخل الكنيسة وهم لا يكادون يستطيعون ذلك. وقد ذكرني منظرها بمنظر العجائز الروسيات الغليظات. وقلت في نفسي: كأنما عدم الرشاقة في الأشياء الروسية قديم.

ولم ندخلها رغم قدم بنائها الذي نوهوا بأنه كان في القرن السادس عشر. وقلت في نفسي: هذه الكنيسة قد بنيت وما حولها بعد أن احتل الروس استراخان وكانت قبل ذلك بقرون مدينة إسلامية ذكرها ابن بطوطة عندما زارها في القرن الثامن الهجري باسم (حاجي طرخان) وتساءلت أين المساجد والآثار الإسلامية من مدارس وأربطة وأوقاف، مما كان فيها قبل الإحتلال؟

لقد جاء جواب السؤال في كتابة كتبها الروس في هذا المكان ليبينوا ـ فيما يدعون ـ أنهم الذين أدخلوا التحسين والتطوير في المدينة.



مع نائب المفتي رستم كامل (في الوسط) ورحمة الله بن عناية الله في منطقة الكرملين في استراخان

وذلك في معرض كلامهم على خريطة إجمالية رسموها على لوحة هناك توضح أن مدينة استراخان كانت في القديم أكبر مما هي عليه عندما

رسمت الخريطة في عام ١٦٣٦م لأن المدينة التي كانت موجودة آنذاك ورسموها لا تساوي إلا ثلث خارطة المدينة القديمة وذكروا أن هذه الخريطة ـ في الأصل ـ من خريطة رسمها شخص تتاري، ويريدون أنه من سكان هذه البلاد لأنهم يسمونهم التتار مثل تتار قازان وتتار القرم. وقد صار هذا الاسم يعني لفترة طويلة ولا يزال اسم (مسلم) في روسيا واسمه (آدم أولياري).

وقد رسموا المدينة القديمة مسورة ذات بيوت من الخشب. ومع أن الخشب هو الطراز التقليدي للبيوت الروسية القديمة فإنهم نوهوا بذكر كون منازل المدينة من الخشب آنذاك فكتبوا تعليقاً يقول:

«كانت مباني مدينة استراخان من الخشب، ولكن الروس حولوها من الخشب إلى البناء بالحجر. وبدأوا ذلك في عام ١٥٨٢م».

وهذا يكذبه الواقع، إذْ لا تزال مبانٍ كثيرة في استراخان مبنية من الخشب ومنها عامة المنازل التي يسكنها الروس أنفسهم، اللهم إلا إذا كانوا يريدون بذلك مباني (الكرملين) هذا فإنها من الحجارة والآجر.

وقد ذكر اسم مهندس روسي هو أول من استعمل البناء بالحجارة في هذه المدينة، ونوهوا بأنه روسي ومن أعظم المباني الحجرية هنا وأعلاها هذه الكنيسة فهي مبنية من الحجارة والآجر الأبيض ومرفوعة عن الأرض بشكل كبير لافت للنظر.

ومن اللافت للنظر أيضاً في هذه الكنيسة أن قبتها تشبه قباب المساجد، وأن أعالي أبراجها مذهبة أي مطلية بالذهب أو بمادة لونها ذهبي، وهذا هو الأقرب.

عدد المساجد في استراخان:

عندما رأيت في هذا المكان كنيستين إحداهما الكبيرة التي وصفتها مع أنه صغير المساحة بالنسبة إلى مساحات القرى، فضلاً عن المدن

سألت فيما بعد عن عدد المساجد في مدينة استراخان في الوقت الحاضر فذكروا أن المساجد المفتوحة للصلاة هي ثلاثة فقط، وأن المدينة كان فيها قبل الشيوعية عشرة مساجد.

هذا وسوف نذكر المساجد الباقية التي يمكننا الإطلاع عليها. وهي التي بقيت دون هدم. فأعيد بعضها إلى المسلمين، وبعضها لا يزال حبيساً وذلك عندما نزور تلك المساجد فيما بعد.

ومما يجدر ذكره أنه لا توجد موانع قانونية تمنع إعادة المساجد إلى المسلمين إذا طالبوا بها وقدموا الأوراق التي تثبت أنها مساجد وهذا أمر متيسر لكونها مسجلة في الدوائر الحكومية وغيرها.

ومن الأشياء اللازمة لذلك أن تطالب بها جمعية مسجلة في الحكومة أو جهة كدار الفتوى مسجلة في الحكومة أيضاً. . وتأليف الجمعيات الإسلامية صار الآن سهلاً بعد سقوط الشيوعية.

وقد وضع الشيوعيون في ميدان الكرملين الذي يتوسط الأبنية التي تقدم ذكرها نصباً يرمز لانتصارهم وجعلوا في وسطه ما يشبه المسلة غير الطويلة.

وقد تجولت في ثكنات الجنود المؤلفة من طابقين أسفل وأعلى في صف طويل والتقطت صورة في الجزء الأعلى.

وبالنظر إلى أن مكان الكرملين في موضع عال فإنه يطل من علوٍ على المدينة القديمة وقد التقطت لجزء منها من المكان المرتفع صورة.

وتشغل (الكرملين) بمعنى القلعة جزءاً كبيراً من هذا المبنى الروسي الواسع بأبراجها المتعددة الشامخة وكأنما فرغ منها بانيها اليوم، ولا شك في أن السبب في ذلك أن الروس كانوا يتعهدونها بالصيانة لما تمثله من رمز وطني لهم في هذه البلاد ثم أصبحت من الآثار القديمة التي تحافظ عليها الدولة.

وللقلعة هذه خمسة أبراج على غرار الأبراج الموجودة في الكرملين في موسكو. وأبراج قلعة الكرملين في قازان.

ميدان لينين:

في كل مدينة من مدن الإتحاد السوفياتي السابق لا بد من أن يوجد ميدان يسمى (ميدان لينين) يختارونه من بين أكثر الميادين أهمية إما لسعته أو لكونه يقع في منطقة تاريخية أو ممتازة من المدينة، وقد غيرت بعض المدن تسمية ميدان لينين فيها إلى اسم آخر بعد أن سقطت الشيوعية التي كان يمثلها لينين وهذه هي الأقل بين المدن، أما أكثرها فقد أبقته على ما كان عليه، وغالباً ما يكون في وسط ميدان لينين تمثال له.

ولم تشذ (استراخان) عن هذه القضية فأسمت ميداناً مهماً واقعاً جهة الشمال من هذه المباني الرئيسية التاريخية ملاصقاً لأسوار الكرملين أسمته ميدان لينين، وغني عن القول أن الشيوعيين هم الذين فعلوا ذلك إبان حكمهم للبلاد.

وقد أقاموا تمثالاً للينين في قلب هذا الميدان، ويمر به شارع لينين أيضاً.

وأمامه مبانٍ عالية مؤلفة من عدة طوابق يدل طراز بنائها على أنها بنيت قبل الشيوعية.

ميدان ماركس:

وماركس هو كارل ماركس أحد المنظرين الشيوعيين ولذلك نسبت الشيوعية إليه فقيل: الماركسية الشيوعية وسموا باسمه ميداناً واسعاً في القسم الشعبي القديم من المدينة.

ذهبنا إليه من كرملين استراخان فاخترقنا شوارع عديدة فيها أشجار مغروسة إلا أنها أقل مما في المدن الروسية التي قدمنا منها، وأهم ما فيها ظهوراً أنابيب التدفئة الضخمة التي يجعلونه مرفوعة عن أرض الشارع ولا

يدفنونها وإنما يضعون لها قواعد تحملها إذا لم تكن مستندة إلى شيء قوي.

وهي تنقل المياه الحارة والبخار إلى البيوت مثلما تنقل أنابيب المياه عندنا مياه الشرب والاستعمال وتدخلها البيوت.

أما ميدان (ماركس) فإنه واسع ولكنه ليس معتنى به كميدان لينين، ولا هو في منطقة فاخرة مثله.



شارع النصر في استراخان

ولم نكن ذهبنا إلى ميدان (ماركس) لرؤية الميدان، وإنما لكي نشتري تذكرة إلى موسكو من مكتب رئيسي لشركة (ايروفلوت) الروسية التي تقع على شارع اسمه (أولسا يابدي) بمعنى شارع النصر وهو يصب

في ميدان ماركس وفيه خطوط القطار الكهربائي السريع (الترمواي) مثلما أنها تخترق ميدان ماركس الذي يصب فيه هذا الشارع.

وقد رأيت قبة واسعة في ميدان ماركس ذكروا أنها قبة (السيرك) الروسي.

واشترينا التذكرتين بسهولة، لأننا وجدنا في المكتب فتاة عصرية وليست من العجائز الثقيلات اللاتي يوجدن عادة في هذه المكاتب.

وما استرعى انتباهي أننا رأينا واقفاً عندها مواطناً روسياً يريد شيئاً لا ندري ما هو أهو شراء تذكرة أو شيء آخر فقال له بلغتها: إنهم (انتورست) أي سياح أجانب ثم تركته، واستمعت إلينا حتى أنجزت بيع التذكرة لنا.

وهي في مكتب ليس فيه باب يدخل عليها من الخارج وإنما تتحدث إليك من نافذة في الحائط أمام مكتبها مثل نافذة شباك التذاكر في محطات القطار ونحوه أو مثل شباك البنوك.

أطول جسر في أوروبا

قال نائب المفتي الأخ (رستم كامل): سوف أريكم الآن أطول جسر في أوروبا ويريد بذلك الجسر المقام على فرعي نهر الفولغا الذي رأيناه أمس عندما ذهبنا لزيارة قرية فالنكا ورؤية مسجدها.

وقد رأيناه ثانية اليوم ومرافقنا الأخ (رستم كامل) يشرح لنا أمره فيقول من بين ما قاله: إن طوله يبلغ أربعة آلاف وخمسمائة متر. وهو - كما قدمت - جسر واحد فوق فرعي النهر وجزيرة ضيقة بينهما.

والجسر ليس واسعاً وليس فيه ما يسترعي انتباه مثلي الذي رأى من جسور العالم العريضة وعجائب هندستها ما رأى فهو مسار واحد للسيارات المتقابلة وعلى جانبه ممر للمشاة ضيق محجوز بحاجز حديدي عال.

ومع طوله الذي يبلغ أربعة أكيال ونصف فقد رأيت جماعة من المشاة يعبرونه وامرأتين تعبرانه كذلك، كل واحدة منفصلة عن الأخرى.

ولم نطل المكث فيه، وإنما التقطنا الصور التذكارية التي نريد التقاطها، ثم رجعنا إلى الفندق.

مسجد الوهابية:



جامع الوهابية في مدينة استراخان

قالوا لنا: إننا سنذهب إلى الإدارة الدينية، ثم وقفوا عند مسجد كبير ذكروا أنه (مسجد الوهابية) وأنه هو هدفنا ثم عرفنا بعد ذلك أن الإدارة الدينية لإقليم استراخان تقع فيه.

والمسجد منسوب إلى أول إمام أم المسلمين المصلين فيه، وكان اسمه (عبد الوهاب) فنسب إليه.

في الساعة الثانية عشرة خرجنا من الفندق على سيارة أجرة قاصدين الإدارة الدينية، وذلك لأداء صلاة الظهر في المسجد وللقاء المفتي الأخ (ناظم بيك) وقد انفجر إطار العجلة الداخلي لسيارة الأجرة فأوقف السائق سيارته عند نهر صغير في المدينة وجعل يبدل العجلة فانتهزت الفرصة وتجولت حول هذا النهر الذي لا يعتبرونه نهراً يستحق الذكر.

ثم أنجز تركيب العجلة في السيارة بسرعة.

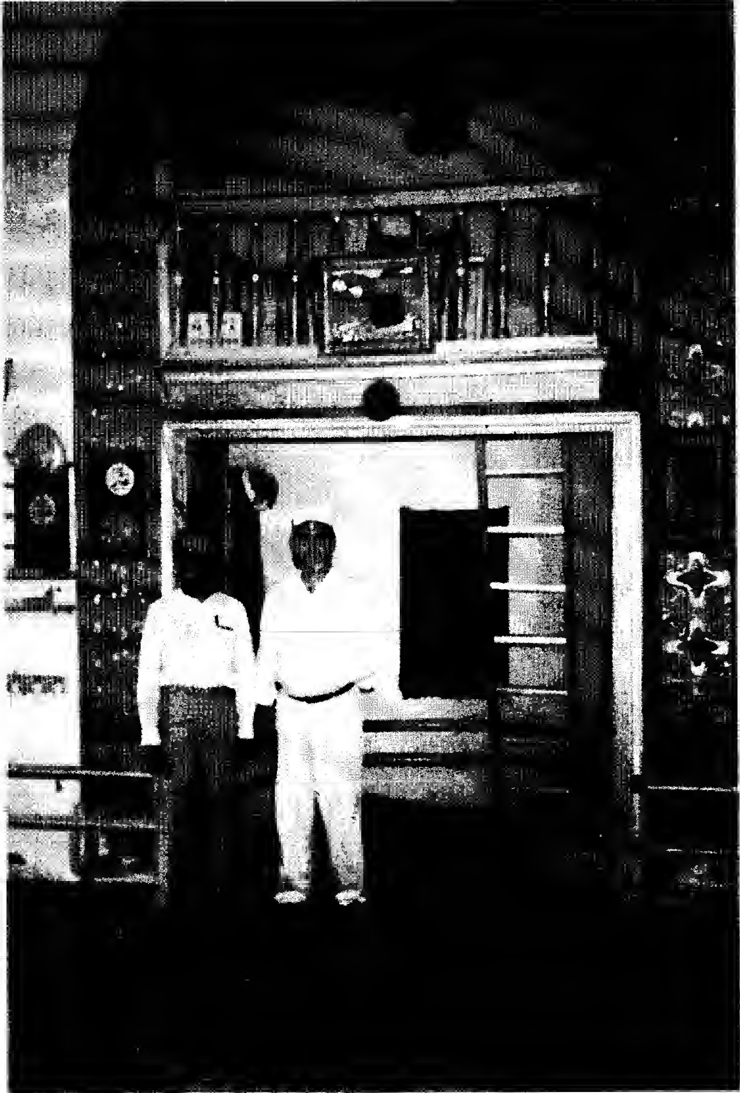
استقبلنا الأخ المفتي عند باب المسجد وظني أنهم كانوا ينتظرون قدومنا. وصدح المؤذن بأذانٍ شجي فصيح يمده، ويترنم به.

وكان يؤذن من مكبر للصوت، وأذانه كالأذان عندنا لأنهم من أهل السنة أحناف المذهب، إلا أنه قال بعد الأذان من المكبر أيضاً: الصلاة، كررها ثلاث مرات.

ولا أرى مسوغاً لذلك لكون الأذان ورد محدداً ومحصوراً بألفاظ معروفة في السنة النبوية، ولكونه لا يحتاج للتنبيه للصلاة بعد الأذان لأن الأذان نفسه هو في الحقيقة تنبيه للصلاة.

لاحظت وجود أناس مجتمعين عند باب المسجد من جهة الشارع وعليهم مظاهر المسلمين وهي لا تختلف عن مظاهر غير المسلمين الموجودين في البلاد إلا في تقاسيم الوجوه وفي فرق قليل في الألوان، فرأيت جنازة قد وضعوها في فناء المسجد المكشوف، لأن من عادتهم ألا يدخلوا بالجنازة إلى المصلى الرئيسي من المسجد، فقلت في نفسي:

سوف يصلي على هذه الجنازة عدد لا بأس به من الناس، ثم قلت: ربما يكون بعضهم من أصدقاء الميت من غير المسلمين أرادوا الإشتراك في تشييع جنازته دون أن يدخلوا المسجد، أما الجنازة فإنها موضوعة على نعش مثل نعوشنا إلا أنه ضيق ما شبهته إلا بالسرير الضيق في الفنادق الروسية، وقد جلل برداء أخضر.



في محراب الجامع الوهابي في استراخان مع المفتي

دخلنا داخل المسجد الذي ألفيناه واسع المساحة والمراد بذلك المصلى المسقوف منه، فوجدنا القوم يتنفلون قبل صلاة الظهر، فصلينا تحية المسجد ركعتين، وكان فيه نحو الصف الذين عددهم ٤٠ مصلياً موجودين فيه قبل الأذان.

وقد تأملت المحراب فإذا به واسع يكاد يكون مسجداً صغيراً يتسع لحوالى عشرين شخصاً إذا كانوا في صفين. وفيه نافذة واحدة كبيرة فيها زجاج ملون، وهي في وسط المحراب.

وقد زينوا المحراب بآيات قرآنية كريمة وكتبوا البسملة: (بسم الله الرحمن الرحيم) فوقها، وتحتها في أيمن المحراب الآية الكريمة **﴿إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع﴾** وتحتها تفسيرها باللغة التتارية: لغة المسلمين في هذه البلاد.

وفي أيسر المحراب كتبوا جملة: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم **﴿فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله﴾** وتحتها تفسيرها باللغة التتارية.

ثم جاء الإمام وهو الأخ المفتي وقد لبس عباءة عربية سوداء، ووضع على رأسه طربوشاً حوله عمامة. فأقام المؤذن للصلاة ودخل الإمام في الصلاة بعد الفراغ من الإقامة مباشرة، من دون أن يكون بينهما فاصل من دعاء أو سكتة خفيفة، ثم صلى صلاة خفيفة بدون الإخلال بشيء من شروط الصلاة وصلى هو بعد الفريضة ركعتين، ثم وقف، وقال: فيه جنازة ويستحسن أن تلقي في الجماعة كلمة عن الغرض من الزيارة وكان عرفهم بنا.

فنهضت وألقيت فيهم كلمة موجزة ترجمها رفيقنا في الوفد الأستاذ رحمة الله بن عناية الله إلى اللغة التتارية. وتضمنت إبلاغهم تحيات إخوانهم في الحرمين الشريفين وإننا جئنا من مهبط الوحي ومنطلق الرسالة المحمدية من مكة المكرمة من أجل السلام عليكم والتعرف على

أحوالكم، وبحث أوجه التعاون ما بين رابطة العالم الإسلامي ودار الفتوى في هذه البلاد، وبينت لهم باختصار أهمية الأخوة الإسلامية.

بعدها رفع الإمام يديه بالدعاء ثلاثاً وكان لا يزال جالساً في موضع الإمام من المحراب، وكان يبدو كما لو كان ينهي الدعاء في كل مرة من المرات الثلاثة ثم يبدأ مرة أخرى، وهم يؤمنون ونحن معهم على ما لا نفهمه. بل لا نسمعه من دعائه.

ولاحظت أن أكثر المصلين هم من كبار السن، وأن الشباب فيهم قليل ولكن منهم المؤذن الذي رأيناه شاباً وجيه المنظر.

ومن الدليل على كونهم من كبار السن لو كان الأمر يحتاج إلى دليل أن بعضهم كان يصلي فوق كراسٍ صغيرة موضوعة في الصف.

وهذه عادة رأيتها في أكثر البلدان الشمالية الباردة، وقالوا لنا في تفسير ذلك: إن الكبار لا يستطيعون في الغالب أن يثنوا أرجلهم، وأحياناً لا يستطيعون أن يحنوا ظهورهم أيضاً. لذلك نأتي لهم بهذه الكراسي يجلسون عليها ويومئون بالركوع والسجود.

الصلاة على الجنازة:

دعانا المفتي إلى الخروج من المصلى المسقوف في المسجد إلى فناء المسجد المكشوف ثم نهض ونهض المصلون كلهم خارجين خلفه إلى فناء المسجد حيث كانت الجنازة موضوعة في مقدمته مما يلي القبلة. ولكنه وقف على درج المسجد والناس أسفل منه في الفناء وألقى فيهم كلمة فسرها لنا بنفسه مع أن رفيقنا الأستاذ رحمة الله قد فهمها. فقال فيها مخاطباً أولئك القوم الذين كنا رأيناهم عند باب المسجد مما يلي الشارع ولم يصلوا الظهر معنا: كيف تكونون مسلمين ولا تدخلوا المسجد؟ أتظنون أن المسجد للإمام وحده، ثم إذا لم تستحيوا من الله، ألا تستحون من إخوانكم هؤلاء الذين قدموا من مكة المكرمة وهم يرونكم تقفون في

الشارع ولا تدخلون المسجد، فماذا يقولون عنكم لأهل مكة؟ هل يقولون: إننا رأينا المسلمين في استراخان لا يدخلون المسجد لأنهم لا يريدون أن يصلوا.



الجنازة على الأكتاف في فناء الجامع في استراخان

وهنا انبرى بعض الموجودين في المسجد ينادي من في الشارع أن يدخلوا المسجد ليصلوا على الجنازة فدخل بعضهم ولم يدخل البعض الآخر، والذين دخلوا وقفوا للصلاة على الجنازة ولكنهم لم يصلوا الفرض ولم يكونوا على طهارة!

إن هذه هي المعضلة التي تواجه الدعاة والمفتين الآن في أنحاء

الإتحاد السوفياتي السابق حيث كان الروس الشيوعيون حاولوا أن ينزعوا الإسلام من أهل البلاد حتى لا يبقى منه عندهم ولا اسمه، وبدأوا بتعطيل الشعائر الدينية مثل صلوات الجمعة والجماعة والحج والتعليم الإسلامي ونجحوا في ذلك.

ثم حاولوا أن ينزعوا منهم حتى الإنتماء الإسلامي المجرد من العمل، وبدا لهم أنهم نجحوا في ذلك إبان البطش والقهر تحت الحكم الشيوعي وذلك ما كانوا يسمعونه من المنافقين والمتزلفين لهم إلا أنه تبين أن الأمر خلاف ذلك عندما أتيحت لأبناء المسلمين الحرية في التعبير بالقول والعمل عما يريدونه وتبين أن الإنتماء الإسلامي كامن في نفوسهم فأعلنوا ذلك. إلا أنه تبين أن أكثرهم لا يعرف من الإسلام أكثر من الإنتماء المجرد الذي اعتبروه هوية ورمزاً تاريخياً لعزهم ومجدهم ليس غير.

وقد عالج الأخوة الدعاة والأئمة وأهل الغيرة على الدين ذلك بالتعليم والإرشاد فنجحوا نجاحاً جيداً وأكثر من رأيتهم نجاحاً في هذا الشأن هم أهل وادي فرغانة في جمهورية أوزبكستان.

ونعود إلى ذكر الصلاة على الجنازة فنقول: إن الإمام وقف عند صدر الميت وهو رجل ولم يقف بجانبه أحد لا من أقارب الميت كما يكون عندنا ولا من غيرهم. فقال نائبه الأستاذ (رستم بن كامل) باللغة التتارية: (نوينا الصلاة على الميت خالصة لوجه الله).

فرفع الإمام يديه وهو يكبر للدخول في الصلاة: ولكنه لم يرفع يديه عند التكبيرات التي بعدها. وصلى عليها مثلما نصلي نحن على صلاة الجنازة من دون فرق.

وعندما انقضت صلاة الجنازة تبادروها يحملونها على أكتافهم، وانضم إليهم عندما خرجوا من المسجد أولئك الواقفون في الشارع الذين لم يدخلوا المسجد فلم يصلوا الظهر ولا صلاة الجنازة.

الغداء العجيب:

أخذنا الأخ المفتي (ناظم بيك) بسيارته التي يقودها بنفسه، وقال أحد الرفاق: إنه كان قد ذكر أن الغداء سيكون هذا اليوم في الإدارة الدينية، ولكن الإدارة الدينية موجودة في المسجد الذي غادرناه. وقال آخر: قد يكون في بيته. هذا وسيارته تمعن السير في الشوارع ولم يقل لنا عن ذلك شيئاً إلى أن وقف عند بيت وجدنا عنده جمهوراً من الناس واقفين وأناساً يدخلون ونساء أيضاً قد تجمهرن عند البيت، ولكنهن في مكان شبه منعزل عن مكان الرجال. وظننت أول الأمر أن هذا هو بيت الميت الذي صلينا عليه قبل قليل، وأن هذه عادة لهم، ولكن تبين أنه ليس بيته.



نساء مسلمات عند البيت الذي تقام فيه مأدبة العزاء في مدينة استراخان

ثم دخلنا البيت فرأيت عجباً إذْ وجدته قد احتشد فيه مئات من الأشخاص حول موائد طويلة بجانبها كراسٍ متراصة وقد رصت الكراسي رصاً شديداً بحيث ذكرت البيت الشعري في الغزل الذي يقول ما معناه: لو سكب الماء بينهما لم ينفذ.

وقد ازدحمت غرف البيت كلها وممراته بالموائد والجالسين وقد اكتمل جلوسهم أو كاد حتى صعب علينا الوصول إلى المكان الذي خصصوه لنا في صدر الغرفة الكبيرة.

وهذه الموائد وضعوها على هيئة موائد محيطة بحيطان الغرف من الداخل، بحيث يجلس عليها الناس في صفين متقابلين. وهذا ما جعلها تستوعب أعداداً كبيرة من الجالسين وجدناهم وضعوا على الموائد الكعك اللين (الكيك) والحلوى والبقلاوة وذلك بكثرة ظاهرة، بحيث ظهر أن ذلك أكثر بكثير مما يحتاجه الآكلون، على كثرتهم.

والخبز المحشو باللحم وبالأرز وعلى الموائد فاكهة من المشمش والتفاح والبطيخ الأخضر (الشمام).

جلسنا وقد اكتمل القوم لأننا كنا آخر القادمين، فسادت فترة من الصمت بدأ الإمام بعدها بما تبين أنه البرنامج فبدأ بتلاوة سورة الفاتحة، ثم سورة ياسين، وقد قرأها قراءة متقنة جداً، بحيث أننا تأثرنا من قراءته لأنه كان يرتل ويعطي الألفاظ حقها رغم أنه لا يقرأ كقراءة القراء المجودين التي تذاع في الإذاعة أو التلفاز، عرفت من ذلك أن الأمر يتعلق بموت أحد لأن سورة ياسين تقرأ على المحتضرين أي من حضرهم الموت ولكن لم يكن عندنا معرفة بمن هو.

وفرغ الإمام من تلاوة سورة ياسين وتمنيت أنه لم يفرغ لطيب تلاوته مع أنني ولله الحمد من التالين للقرآن. فبدأ أحد الحاضرين بتلاوة سورة الفاتحة وآيات من سورة البقرة.

وبعد فراغه أخذ شخص ثالث بتلاوة الفاتحة وآية الكرسي.

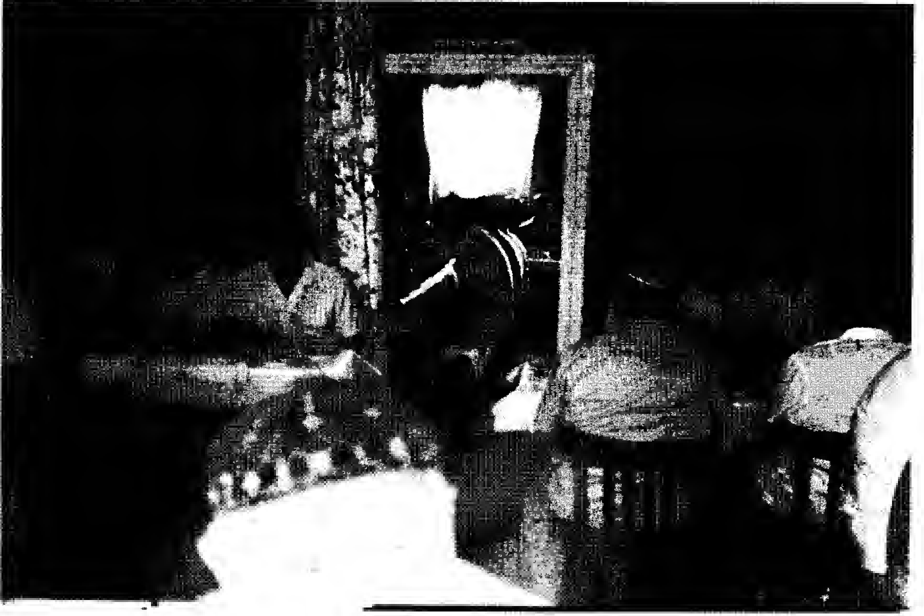
ثم دعا الإمام دعاء مطولاً بالعربية وتضمن الدعاء بالرحمة لها وقد سألت الإمام بعد فراغه من الدعاء عن المقصودة به، فقال: هي زوجة صاحب البيت وقد توفيت قبل أسبوع، ثم دعا بدعاء باللغة التتارية وقد أخذ القوم يؤمنون عليه ويبين تأثرهم به لكونه بلغتهم التي يفهمونها وكنت توقعت أن تنتهي هذه الأمور التي تمكن تسميتها بالمراسم بعد كل فقرة من الدعاء إلا أنه يتبين أنها ليست الأخيرة فقد دعا المفتي بدعاء طويل جداً صرح فيه بأنه يدعو للمتوفاة (فاطمة بنت عبد الله) التي توفيت قبل أسبوع.

كل هذه التلاوة والأدعية والقوم لم يمدوا أيديهم على شيء مما في المائدة ولكن عند الفراغ من الدعاء المطول الأخير سكت القوم ثم جاءت أطباق الطعام الحار فكانت صحوناً من الأرز البخاري الدسم وقد طبخوا مع اللوز اللحم البقري قد قطعوه قطعاً صغيرة ثم أحضروا أطباقاً من البطاطس المسلوق بمرق اللحم. هذا إلى جانب الأكل مما هو على المائدة من خبز ومحشو وحلوى وغير ذلك.

وعند الفراغ من الأكل تكلم المفتي فقال: الحقيقة أن الطعام لا ينفع الميت، وإنما الذي ينفعه هو العمل الصالح، فعلموا أولادكم دينهم حتى يصبحوا صالحين ويدعوا لكم بما ينفعكم.

مخاطبة المسلمين:

لم أحظ منذ أن وصلت أمس بوجود مثل هذا العدد المجتمع في هذا المكان من مسلمي استراخان لأن الجماعة الذين تكلمت فيهم في اجتماع غير موسع هم أهل قرية (كلنجي) وجماعة المصلين في مسجد الوهابية.



المسلمون على موائد الغداء في مدينة استراخان

أما الآن فإن الحاضرين هم مئات وهم أكثر بكثير من الذين حضروا لصلاة الظهر اليوم رغم وجود جنازة جذبت إلى المسجد بعض المصلين.
لذلك عندما طلب مني المفتي أن أتكلم فيهم رحبت فألقيت فيهم كلمة بينت فيها بعد الديباجة وإبلاغهم تحيات إخوانهم في رابطة العالم الإسلامي في المملكة العربية السعودية وبينت لهم عمل الرابطة وهو التعاون بين المسلمين في جميع العالم على البر والتقوى عملاً بقوله تعالى: ﴿**وتعاونوا على البر والتقوى**﴾ بينت لهم أن الدين الإسلامي ليس دين العرب وحدهم، بل هو دين الله الذي بعث به رسوله أشرف الأنبياء والمرسلين وخاتمهم محمد بن عبد الله ﷺ فشرف الله العرب بحمل

رسالة الإسلام وكان من الصحابة جماعة من أفاضلهم ليسوا من العرب مثل بلال بن رباح الحبشي من افريقيا وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي وعندما فتح العرب المسلمون البلاد القريبة لم يفرقوا بين جنس من الناس وجنس آخر، بل الكل عندهم كانوا سواسية أمام شرع الله. فالتفاضل هو بالعمل الصالح وليس بالنسبة إلى قبيلة أو جماعة من الناس دون بعض، لأن الإسلام ليس عنصرياً، بل هو يمقت العنصرية ولذلك كانت مخاطبات القرآن الكريم للناس على قدر أعمالهم مثل يا أيها الذين آمنوا، ويا أيها الذين كفروا ولم يقل يا أيها العرب، ويا أيها الفرس على سبيل المثال.

وورد المعنى صريحاً في الآية الكريمة **﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾**.

وقد شاهدنا ثمار ذلك في كون جماعات إنسانية غير عربية أسلمت وحسن إسلامها حتى أنهم جاهدوا في سبيل الله مثلما جاهد إخوانهم المسلمون العرب وفتحوا بلاداً جديدة تحت راية لا إله إلا الله محمد رسول الله ومنهم أجدادكم التتار: حكام هذه البلاد السابقون قبل أن يتفرقوا ويتغلب عليهم الأعداء.

ولكن الإسلام لا يكفي فيه القول، بل لا بد من العمل بما أمر الله به ورسوله وقد شاهدنا اليوم في المسجد أن بعض أبناء المسملين الذين حضروا لتشييع الجنازة لم يصلوا صلاة الظهر بل لم يدخلوا المسجد، وإنما وقفوا خارجه ينتظرون الفراغ من الصلاة مما حمل أخانا وصديقنا المفتي على أن ينبههم إلى سوء فعلهم، وإلى وجوب حضورهم صلوات الجماعة، ويجب عليكم مناصحتهم.

ويجب أن تعلموا أن الإسلام ليس عبادات فقط فالعبادات هي أركان الإسلام ولكن هناك الأوامر الإسلامية المتعلقة بالمعاملات وحسن التصرف إزاء الآخرين من مسلمين وغير مسلمين وكلها تحث على الأمانة، والعدل بين الناس، وحسن الخلق، والمحافظة على الفضيلة.

ويجب على كل واحد منا أن يحاسب نفسه عما فعله فإن كان خيراً حمد الله وعمل على الزيادة منه وإن كان غير ذلك استغفر الله وعزم على عدم العودة إليه، وإذا أشكل الأمر عليه لا يدري أحلال هو أم حرام؟ أو إسلامي أو غير إسلامي فإنه يسأل المفتي وغيره من أهل العلم. كما قال تعالى ﴿**فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون**﴾.



بعض الجالسين على موائد الغداء للعزاء في مدينة استراخان

وقد ترجم الكلمة إلى التتارية رفيقنا الأستاذ رحمة الله بن عناية الله، هذا وكان يقوم على خدمة المائدة عدد كبير من الشبان الذين هم فيما يبدو أقارب أو جيران لصاحب المنزل واسمه (رحمة الله بن سليمان).

ولم تعمل النساء أي شيء من خدمة الرجال بل لم يجلس مع

الرجال منهن ولا واحدة، وليس على موائد الرجال منهن أحد. ولكنهن كن عندما خرجنا من الدار قد انتظمن في صفوف بجانب صفوف الرجال الذين كانوا قد اصطفوا خارج البيت وعند مداخله فمررنا بهم ولوحنا بالسلام عليهم وعليهن. وأكثر النساء هن من العجائز والمسنات.

جولة على مساجد أستراخان

تمثل المساجد في البلدان الشيوعية أو التي كانت شيوعية إلى جانب أهميتها للعبادة دلالة على نشاط المسلمين في أمور دينهم فيمثل كونها عامرة دلالة على نشاطهم وحيويتهم والمراد بعمارة المساجد عمارتها الحسية بالتشييد والبناء أو بالترميم والإصلاح وعمارتها أيضاً بالعبادة والصلاح. وفي هذا المعنى الأخير ورد الأثر: إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان لأن الله تعالى يقول: **﴿إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً﴾**. فهذا من عمارتها بالعبادة والصلاة وفي المعنى الأول أحاديث وآثار كثيرة ليس هذا موضع ذكرها وإنما نستشهد بواحد منها وهو قوله ﷺ: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» فالمراد تشييدها وبناؤها.

وكلا المعنيين عام في المساجد في كل البلاد غير أن المساجد في البلاد الشيوعية تعرضت إلى الهدم والإزالة أو المصادرة والتخريب وتغيير هيئتها حتى لم يبق الشيوعيون في كل مدينة إلا مسجداً واحداً أما القرى والمدن الصغيرة فلم يبقوا فيها أي مسجد.

لذلك لا بد من الإطلاع على ما فعله الأخوة المسلمون بالنسبة للمساجد في بلادهم بعد أن سقطت الشيوعية، وزالت الموانع التي كانت تمنعهم من عمارة المساجد.

وقد اتجهت أعمالهم في المرحلة الحاضرة إلى استعادة المساجد القديمة التي كان الشيوعيون قد صادروها وإصلاح ما أصابه الخراب والدمار منها.

لذلك طلبنا أن نشاهد المساجد في هذه المدينة ليس لمجرد المعرفة بحالها التي هي مطلوبة لذاتها ولكن من أجل أن نقدم للجمعيات والجهات المسؤولة عن عمارتها مساعدات مالية عاجلة من رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة على ذلك، لأننا نعرف أن كثيراً منها وقف العمل به لقصور النفقة.

ذهبنا بصحبة المفتي على سيارة لأحد الإخوة المسلمين الذين حضروا معنا طعام الغداء فبدأنا أولاً بمسجد الوهابية حيث التقط صورة لمنارته ولبيوت تقليدية خشبية على يساره.

وتأملنا تاريخ بنائه وهو عام ١٨٨٩م.

مسجد التتار:



مسجد التتار في استراخان

غادرنا (مسجد الوهابية) الذي ليست له علاقة بكلمة الوهابية التي يشنع بها أعداء الدعوة السلفية ومحاربة الخرافات فيلصقونها بأهل بلادنا ومن رأى رأيهم في تنقية الدين، والرجوع إلى ما كان عليه سلف المسلمين. وذلك لكوننا سنعود للمسجد فيما بعد بإذن الله لأننا واعدنا أصحاب المساجد لصرف مساعدات لتلك المساجد في دار الفتوى في هذا المسجد.

فكان أول مسجد زرناه بعده (مسجد التتار) ويسمونه (تتاري مسجد) أي المسجد التتاري ويقع في المدينة القديمة قريباً من السوق ولكنها ليست البالغة في القدم.

وقد بني المسجد نفسه عام ١٩١٣ بناه (شاكر قازاقوف يني) كما كتب ذلك في لوحة عليه وصادره الشيوعيون وحولوه إلى إدارة لمستشفى. وذلك بعد أن هدموا منارته حتى يخفوا المظهر الإسلامي الذي كان له. ثم استعاده المسلمون في عام ١٩٩١.

وقد صار الإخوة القوقازيون الموجودون في هذه المدينة يعتنون به ويستأثرون بإدارته وشكا المفتي من ذلك وأن بعضهم يضع في مُلاحق المسجد بضائع ونحوه لخزنها خزناً مؤقتاً.

هذا مع العلم بأن الإخوة القوقازيين وخاصة أهل داغستان هم من أنشط المسلمين الذين خضعوا للحكم الروسي وأكثرهم عمارة للمساجد.

وجدنا المسجد ذا فرش نظيف غالٍ، وكل ما في المسجد ينطق بالعناية وفق ذوق سليم. حتى إنهم يعملون الآن في ميضأة تشتمل على دورات عديدة للمياه، وقد وجدنا بابه مغلقاً لأن وقت صلاة العصر لم يكن حان بعد. وقد أغلقوه لكونه في السوق حيث اجتماع الناس وقد يدخل إليه أحد من غير المسلمين لمجرد الراحة كما أننا لاحظنا أن فراشه ثمين ونظيف ويخشى عليه. وقد علقوا فيه لوحات جميلة كلها بدون استثناء باللغة العربية.

ويخطر في الذهن ما شعرت به في مناسبات مماثلة سابقة من فضل الدين الإسلامي على العرب حيث صارت اللغة العربية تعلم ويعتنى بها في جميع أنحاء العالم من المسلمين حتى إن المرء بمجرد أن يصبح مسلماً ينطق أول ما ينطق به بكلمات عربية (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله) ثم يتعلم القراءة الواجبة في الصلاة وأولها سورة الفاتحة، وكنت أعجب من عدم إدراك بعض العرب لأهمية هذا الأمر وعدم رغبة بعضهم في العمل بما يقتضيه، لأن المفروض أن يسارعوا إلى استغلال هذه المزية للغة العربية فيسعوا إلى تعليمها ونشرها في بلاد المسلمين والأقليات المسلمة في العالم، بل أن يسعوا إلى نشر الدين الإسلامي الذي شرف الله العرب بحمله إلى الأمم.



المؤلف في سوق استراخان

ومن المفرح أن عدة شبان قد جاؤوا إلى المسجد متفرقين وهم يصلون ولا أدري أيتنفلون أم يصلون الظهر في آخر وقتها.

وقد بحثنا عن إمام المسجد ورئيس الجمعية المشرفة عليه فلم نجدهما، بل لم نجد من له علاقة وظيفية بالمسجد إلا الحارس.

والمسجد كما قدمت واقع في سوق كبير للخضروات وغيرها من البضائع الصغيرة وليس في السوق غريب بالنسبة إلى أمثالنا حتى الأزياء المحلية التي يفترض أنها موجودة هنا لم أر منها شيئاً معروضاً.

أما الخضروات والفاكهة فإنها كثيرة بالنسبة إلى البلاد الروسية الشمالية التي لا توجد فيها حتى في وقت الصيف. ومنها البطيخ الأخضر (الحبحب) والأصفر (الشمام) بمقادير كبيرة.

ومعظم الباعة فيه أي في داخل السوق هم من الرجال وأما البضائع الأخرى من غير الفاكهة والخضروات فإنها صغيرة والبائعات لها هن من النساء.

وقد رأيت نساءً يلبسن لباساً سابغاً كأنه الثوب النجدي الذي تلبسه النساء عندنا والذي يقرب من قميص الرجل الطويل. وهن متميزات بهذا وبصفاء ألوانهن مع بياض ظاهر، وليس في وجوههن من الملامح المغولية شيء وهن يبعن في السوق ذكروا أنهن من القوقاز.

ثم وقفنا على مسجد يسمى (كريوش) على اسم الحي الذي يقع فيه من المدينة القديمة أيضاً وهو مسجد ليست له منارة فظننت أن الشيوعيين هدموها عندما استولوا عليه ولكنهم قالوا: إنه هكذا ليست له منارة من قبل أن يستولي عليه الشيوعيون وقد بني في أول القرن التاسع عشر الميلادي فليس قديماً وقد استعاده المسلمون في عام ١٩٩٢، وإن لم يتسلموا الأوراق الرسمية الخاصة به إلا قبل سنتين، ومع ذلك لم يعملوا فيه أي

ترميم أو إصلاح حتى الآن وعللوا ذلك بأنهم لا يستطيعون ذلك بسبب عجزهم المالي.

ويقولون: إنهم يفكرون في ترميمه وتهيئته ليكون مدرسة مع أنه ليس بقربه مسجد آخر.

وقلت لهم: إنه لا يجوز أن يحولوه إلى مدرسة ولكنهم يستطيعون أن يهيئوه ليكون مسجداً فيه مدرسة فهو واسع. ويمكن تعديله على هذا الأساس.



بيوت خشبية قديمة بجانب جامع استراخان

وقلت لهم: إنه لا عذر لكم في عدم ترميمه إلا لو كنتم بذلتم الأسباب التي تستطيعون بذلها كلها ولم تحصلوا على ما يكفي لترميمه، وأنتم لم تفعلوا ذلك لأنكم لو اتصلتم برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة مثلاً أو في غيرها من المؤسسات الكبيرة وشرحتم لها الأمر لكانوا أرسلوا إليكم إسهاماً في عمارته جيداً. وأنا أقول هذا من موقع المسؤولية في الرابطة. وحتى الآن إذا ألفتم جمعية إسلامية لإعادة تعمير المسجد وجعله صالحاً للصلاة، ولإنشاء فصول دراسية إسلامية فيه وأرسلتم طلب المساعدة إلينا بوساطة الشيخ المفتي فإننا سوف نسهم من رابطة العالم الإسلامي في ذلك، كما أننا سوف نسعى لكم لدى المتبرعين وأهل الخير في بلادنا للإسهام أيضاً في تعميره وربما يحصل من ذلك ما يكفي.

فذكر المفتي أنه كتب لسفير المملكة العربية السعودية في موسكو، وأن موظفاً من السفارة زار مدينة استراخان وشاهد حالة هذا المسجد، وذلك منذ عام مضى.

ويقع المسجد على شارع متوسط السعة اسمه (باكنسكي).

وقد التقطت صوراً عند المسجد مع المفتي وصاحب السيارة التي معنا واسمه اسحاق عبد الرحمن وهو من التتار.

أول مسجد:

قبيل الساعة الرابعة كنا نصل إلى أول مسجد في المدينة حسبما ذكروه لنا ويسمونه (آق مسجد) بمعنى المسجد الأبيض حتى سميت المحلة التي يقع فيها (محلة آق مسجد) وأول ما استرعى انتباهنا أن فيه لافتة باللغة التتارية ولكن بحروف عربية تقول ما معناه: إذا كنتم تريدون التبرع للمسجد فضعوه هنا إشارة إلى ثقب في الجدار.

وهذا المسجد واسع وله ملحقات ولذلك ذكر المفتي أنهم يخططون لجعل الإدارة الدينية في هذا المسجد، لأنه واسع وقديم. وإنهم يعتبرون بقاءهم في مسجد الوهابية مؤقتاً.

وقد وجدت في باحة المسجد شجر عنب فيه حمله، وظننته يكون صغيراً لأن الوقت لا يزال مبكراً على نضجه ولكنني وجدته في حجم عنب في بيتي في الطائف رغم الفارق في الموقع الجغرافي بين الطائف وهذه البلاد من حيث البعد عن خط الإستواء إلا أن برودة الجو في هذا الوقت متقاربة، بل إن الطائف أبرد في الليل وأطراف النهار.

وقد استعادوه من الحكومة في عام ١٩٩١م ولكنها كانت قد هدمت منارته، وأساءت استعماله ويؤلف الطابق الأسفل منه مدرسة واسعة، ذات فصول متعددة فيها المقاعد الجيدة أما المسجد فإنه في الطابق الأعلى في مصلى مؤقت هيئوه لهذا الغرض.

وللمسجد جمعية لها رئيس ويسمونه رئيس متولي، وكذلك للمدرسة رئيس ولكنها لا تعمل الآن بسبب العطلة الصيفية ولم أجد أحداً منهم، لأنه لم يشعرهم أحد بمجيئنا من قبل.

ونوهوا بكون الحي الذي يقع فيه وهو حي (آق مسجد) أكثر سكانه مسلمون.

توزيع المساعدات:

كانت الساعة تقارب الخامسة عصراً عندما فرغنا من زيارة (آق سجد) فتوجهنا إلى جامع الوهابية الذي فيه الإدارة الدينية وكنا واعدناهم فيه فحضر منهم طائفة من الذين زرنا مساجدهم ولم نجد المسؤولين عنها مثل أهل مسجد قرية (فلانكا) فقد حضر رئيس جمعية المسجد (رستم بن زبير زين الدين) ومحاسب المسجد (مولود بن قربان أكانوف).

وسلمنا لهم المساعدة بحضور المفتي ونائبه واثنين من كبار المسلمين، وطلبت منهم مثلما طلبنا من غيرهم أن يشعروا الشيخ المفتي بكل ما سينفقونه منها حتى يخبرنا به.

وقد سر الجميع وبخاصة المفتي الذي كان رافقنا في زيارات

المساجد وعرفنا بأهلها، وذكروا أن هذه أول مساعدة تأتيهم من خارج البلاد نقدية فورية.

نزهة في نهر الفولغا:

دعانا الإخوة أهل استراخان إلى نزهة في نهر الفولغا فاستجبنا إلى ذلك لكوننا قد فرغنا من العمل في هذا النهار ولكوني قمت بنزهة سابقة في أعالي نهر الفولغا قبل توحد النهر وذلك انطلاقاً من مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية (بشقردزستان) وتقع أوفا بين نهرين من أصول النهر أحدهما (أق صو) بمعنى النهر الأبيض والثاني (قرا صوا) بمعنى النهر الأسود يتحدان بعد أوفا فيؤلفان ما كان يعرف عند القدماء من أهل البلاد بنهر ايدل وعند أسلافنا العرب بنهر ايتل حيث يسير نهر قاما العظيم فيجتمع بنهر آخر أو لنقل بأصل آخر من أصول النهر يسميه الروس (الفولغا) فيصبح عندهم النهر حينئذ (الفولغا) وهو عند أسلافنا العرب وعند بني أهل هذه البلاد من قدماء ومحدثين نهر ايدل من أصله إلى مصبه في نهر الخزر الذي يعرف الآن بنهر قزوين يبعد البحر عن مدينة استراخان ٧٠ كيلومتراً أي مثل المسافة ما بين مكة المكرمة ومدينة جدة.

والنزهة في هذا النهر سهلة وغير معقدة، إذْ توجد فيه سفن وقوارب عديدة تنقل الناس إلى القرى التي تقع على ضفتيه أو تقع قريباً من ضفتيه فما على من يريد التنزه فيه إلا أن يشتري تذكرة إلى إحدى القرى مرجعة أو يشتري تذكرة أخرى للعودة.

ركبنا السفينة بصحبة المفتي والأخ مولود علي.. وهو شاب مثقف من أهل البلاد يعمل نائباً لمدير مكتب السياحة التركي وحملنا بسيارته إلى مرسى للسفن في الفولغا مقابلاً للفندق فوجدنا السفينة راسية فاشترينا التذاكر، وأردنا الصعود فمنعتنا موظفة روسية غليظة قائلة: لم يحن الصعود بعد، وقبل موعد تحركها بـ٥ دقائق.

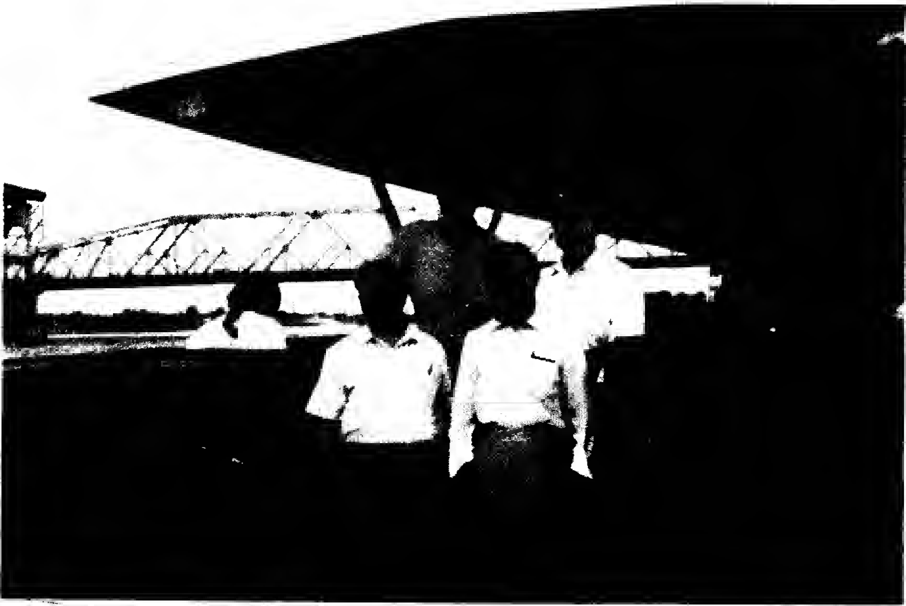


شاطيء نهر الفولغا في استراخان كما يرى من السفينة

ركب معنا في هذه السفينة التي تصح تسميتها باليخت وهو القارب الكبير الفاخر لولا أن اللفظ غير عربي جمع من الركاب كلهم بدون استثناء من البيض وأكثرهم من الروس وأقلهم من التتار، وقد تخففوا من

ملابسهم تشفع لهم بذلك عندهم حرارة الجو في فصل الصيف الذي يعقبه شتاء قاسٍ مرير، وكلهم ذاهبون إلى مساكنهم يتخذون من هذه السفينة وسيلة مواصلات كالحافلة على البر.

رغم البياض الناصع في ألوانهم فإن المرء يلاحظ أن أكثرهم ذوو وجوه ذابلة، أي غير نضرة، ومرجع ذلك إلى عدم السعادة الروحية في هذه الفترة التي كثرت فيها متطلبات الحياة مع صعوبة الحصول على الكفاية من ضرورات الحياة وإلى شيء آخر وهو عدم العناية بالغذاء الجيد، وبالتوازن الغذائي الذي يتطلب تناول الفاكهة والخضروات والتمتع بالكفاية من الأغذية الأخرى الغنية بالزلاليات، إضافة إلى عدم وجود الملابس الفاخرة بل الجيدة لديهم. والمشقة في العمل. ومع ذلك لا يعدم المرء أن يرى بينهم وجهاً مشرقاً إلا أن ذلك قليل.



صورة تذكارية مع الرفيقين ومفتي استراخان على ظهر السفينة في الفولغا

سارت السفينة في الفرع الكبير من نهر الفولغا سيراً وئيداً بحيث كان يتبعها نهر من الزبد لا تحاول أن تسبقه ولا يحاول أن يكف عن اللحاق بها.

والهواء وسط النهر معتدل جداً فهو نسيم عليل بليل يربت على الوجوه بحنان، إلا أنه حنان لا تتحمله الشعور الشقر الخفيفة فتحاول أن تفر منه حتى تبدو الأصداغ والآذان.

ونحن قد أخذنا بجمال هذه الأمسية الندية في أسافل نهر الفولغا كما كنت أخذت بجمال أمسية مضت عليها عشر سنين في أعاليه بدأ من مدينة (أوفا) عاصمة جمهورية بشقردزستان.

وقد اتجهت السفينة جهة الجنوب جاعلة جزيرة في النهر فصلته إلى ما يشبه الفرعين على اليمين وبالغ الشيخ المفتي حينما قال معلناً عن ذلك: إن فروع النهر وشعبه هنا تبلغ أكثر من الألف، بعضها يشبه الأنهار الكبيرة أو المتوسطة.

وغرقت في بحر من الذكريات التي تواردت إلى خاطري عن المرات التي ركبت فيها الأنهار في أنحاء العالم المتباعدة فتبادرت إلى ذلك من بين ما تبادرت ذكرى نزهة في نهر الأمازون أكبر أنهار الدنيا حيث ركبته من مدينة (ماناوس) عاصمة ولاية الأمازون في البرازيل وقصصت قصتها في كتاب: «على ضفاف الأمازون» الذي طبعه النادي الأدبي في أبها، وقد قطع عليَّ الأخ المفتي حبل التفكير وهو يراني أتأمل مياه النهر ليقول: إن هذا النهر يتجمد كله في الشتاء فتوقف السفن وتستعمل فوقه السيارات حيث تسير فوقه كما تسير على اليابسة.

قال: وذلك بأن درجة الحرارة تتدنى كثيراً في الشتاء، وقد وصلت في العام الماضي إلى ٣٤ درجة مئوية تحت الصفر!!!

وعرفت وأنا أتذكر حر أمس وأول الليل البارحة أن بلادنا التي يعتبرونها قارية إنما هي بلاد حنون لا ترتفع فيها درجة الحرارة في الأيام

الصيفية المعتادة لأكثر من ٤٥ درجة ولا تنخفض فيها لأقل من عشر درجات في أكثر أيام الشتاء فيكون الفرق هو ٣٤ درجة. أما هنا فإن درجة الحرارة أمس هي ٣٥ وذكروا أنها تصل إلى ٤٠ درجة فالفرق بينها وبين درجة البرودة كبير.

إضافة إلى ما ينبغي أن نتذكره وهو أن البرودة الشديدة هي قاتلة للإنسان والحيوان إذا لم يعد لها ما يكافحها من لباس واكتنان، لأن الدم يتجمد في العروق من شدة البرد بدون تدفئة. أما بلادنا الحنون فإن الجو يها سواء في الشتاء أو الصيف لا يميت، وإن كان يشق على الإنسان والحيوان.

فقلت للمفتي والآخرون من المرافقين يستمعون: ربما كانت قسوة البرد عندهم ناتجة عن وقوع بلادهم في طرف البرية المسماة (دشت قفجاق) في القديم التي ذكرها علماؤنا العرب في كتبهم ومنهم ابن بطوطة بقسوة البرد في الشتاء وهي معروفة الآن بذلك.

وهذه (الدشت) التي يصح أن تسمى مفازة يسميها بعض الناس صحراء القازاق والصحراء كما نعرفها تكون شحيحة العشب والنبات وهذه كثيرة العشب والنبات في أيام الصيف.

فقال المفتي: نعم، إنها صحراء، ولذلك يقول الناس أن ٦٠٪ من أرض استراخان هي صحراء. ومررنا على سفن بيض قرب الشاطىء أشار إليها المرافقون باهتمام، وقالوا: هذه هي كسارات الثلج تستعمل لتكسير الثلج وإبعاده عن طريق السفن قبل أن يستحكم ثلج النهر، أو بعد أن يبدأ الدفء بتمزيقه.

وقالوا: إنها معطلة الآن ولا تستعمل إلا في الشتاء. وقال أحدهم: إنها واقفة تنتظر ما لا ينتظره الناس وهو الشتاء الذي لا يحبه الناس هنا.

وعلى ذكر السفن في النهر أخبروني أن السفن تنطلق من استراخان في نهر الفولغا حتى تصل إلى بحر الخزر (بحر قزوين) وإنها وسيلة مهمة

من وسائل النقل والمواصلات بين هذه المدينة والمدن الواقعة على البحر المذكور، ويبعد البحر كما قلت ٧٠ كيلومتراً عن مدينة استراخان وكلها في أراضي إقليم استراخان.

ووقفت الباخرة في مرسي يسمونه (ديزاتا) أو العاشر.

ثم استأنفت السير على صفحة النهر وهو هنا عريض مثل النيل أو يتجاوز عرضه عندما يحاذي القاهرة.



شاطيء نهر الفولغا في استراخان قبيل الغروب

ومررنا بحوامة قد أوقفوها على اليابسة والحوامة هي المركبة التي تسير في الماء وفي اليابسة. وقد عجبت هنا كما عجبت من قبل من

إهمالهم الأشياء التي تتعلق براحة الشعب ورفاهيته، وحرصهم بل تصميمهم على العمل بما يكسبهم القوة فهذه المنشآت المتحركة في بلادهم من القطارات والطائرات والسفن والحوامات وحتى المركبات الفضائية. فضلاً عن الصواريخ والقذائف بأنواعها كل ذلك من صناعتهم يبذلون فيه الأموال الطائلة ويضغطون على شعبهم، بل شعوبهم لأن الإتحاد السوفياتي مؤلف من شعوب عدة من أجل توفير الأموال وتأهيل الأيدي الفنية لذلك الغرض.

كل هذا وهم دولة عظمى مرهوبة الجانب لا يفكر أحد بالإعتداء عليها وإنما تخشى هي من أن تتفوق أمريكا عليها بالسلاح فتقهر إيراداتها في المجال الدولي، ونحن دول صغيرة أو متوسطة بحاجة إلى القوة من أجل انتزاع حقوقنا من الغاصبين كفلسطين والقدس الشريف، وعلى الأقل للدفاع عما بقي لنا، ومع ذلك ننفق أموالنا في ترفيه شعوبنا وفي توفير الملذات من مأكل ومركب وملبس لها إلى جانب الخدمات المهمة مثل المستشفيات والطرق الحديثة التي هي مهمة ولكنها أقل أهمية من أدوات الدفاع عن النفس.

نزهة ممتعة:

وقفت السفينة التي يصح ـ كما قلت ـ أن تسمى باليخت لولا عجمة هذه الكلمة في مرسى من المراسي المتعددة في النهر فنزل منها أناس وركب آخرون.

وهنا كانت بلغت نهاية سيرها جهة الجنوب فعادت متجهة إلى الشمال. جهة فندقنا، وكان السير في هذا الأصيل والساعة قد تجاوزت السابعة ولكن النهار لا يزال فتى وقد برد الهواء، وصفا الجو، فصارت السفينة تنساب على الماء كما تنساب الحية من جحرها طبقاً لما قاله الشاعر في غزله:

حتى إذا الليل مضى نصفه ... وغابت الجوزاء والمرزم
أقبلت في خطو خفيّ كما ... ينساب من مكمنه الأرقم

والأرقم: الحية. وخطو السفينة هو انزلاقها فوق صفحة النهر الناعمة التي لا تعاكسها ريح، ولا تعترضها موانع. وقد جمع لركابها الماء والخضرة والوجه الحسن. فصارت عيونهم تتراقص في هذا الجو البديع كما تتراقص طيور النورس التي رأيناها على ضفة النهر، وهي تطير كأنما هي النعامات الشاردة، أو كأنما هي من عمالقة الفراشات التي تتراقص في دنيا الخيال.

ولاتصال نهر الفولغا ببحر الخزر صار سمك الكافيار أي البطارخ وهو بيض السمك المشهور بنفاسته وغلاء ثمنه يوجد فيه، وقد طلبنا من الأخ مولود علي أن يشتري لنا منه فاشترى بمائة دولار أمريكي ما يساوي عشرة آلاف دولار أمريكي في لندن مثلاً.

والمراد ببيض السمك هو بيض سمك خاص يوجد في بحر قزوين (الخزر) ولا يوجد في غيره إلا ما ذكر من كون بعض المتمولين الروس حاولوا تربية سمك الكافيار في منطقتهم ولا أدري عن نجاحهم في ذلك.

وكنا في زمن الإتحاد السوڤياتي السابق نأكل سمك الكافيار في اليوم ثلاث مرات مع الوجبات الثلاث، إذ كنا ضيوفاً على الدولة السوڤياتية طيلة زيارتنا للإتحاد السوڤياتي التي استغرقت ١٦ يوماً فكانوا يقدمونه مع مقدمات المائدة ومع الزبد يضعون عليه قليلاً من الزبد ويضعونه معه فوق قطعة من الخبز.

كما أنهم يحضرون معه بيض سمك آخر أحمر اللون ذكروا أنه دون (الكافيار) الأسود بكثير في القيمة والنفاسة ولكنه ليس كثيراً في غير بلادهم.

وكانوا أيضاً يطعموننا في ولائمهم سمك الكافيار وهو الذي يبيض السمك ويقولون: إن قيمته أغلى عشرة أضعاف من قيمة السمك المعتاد.



المؤلف في أحد شوارع مدينة استراخان

وأما الآن بعد أن دخلت روسيا في اقتصاد السوق الحر لم يعد الكافيار يقدم في المآدب لأنه فتح له باب التصدير فتلقفه التجار والسماسرة والقادرون على دفع الرشاوى للموظفين وصاروا يصدرونه للغرب لأنهم يجدون فيه من الثمن له ما لا يجدون ما يقاربه في بلادهم.

وقد احتكرت الحكومة بيعه، إلا أن بعض الأهالي يصطادون السمك، ويأخذون منه الكافيار فيضعونه في برادات قوية لكي يبيعوه في السوق المحلية لأنه يصعب تصديره بالنسبة إليهم.

ولا أزال أجهل السبب الذي اختص به هذا البحر بحر الخزر بالكافيار دون غيره وقد يقال لكونه بحراً مغلقاً لا يتصل بأي بحر آخر،

ولكن يرد عليه أن تربية سمك الكافيار تبدو من الناحية المبدئية ممكنة في بحار أخرى اللهم إلا إذا كانت هنا مادة أو مواد غذائية اختص بها هذا البحر دون غيره هي التي يتغذى سمك الكافيار عليها.

ومرت السفن تحت جسر معترض فوق مياه الفولغا فذكر المرافقون أنه يرفع بالكهرباء لتعبر منه السفن الكبيرة العالية الصواري.

أين المقاهي والمطاعم؟

تأملت ضفاف هذا النهر العظيم وما يحيط بها من ماء وخضرة ووجه حسن فإذا بها تكاد تكون خالية من المطاعم والمقاهي ومن المتنزهات وقلت: لو كانت هذه في بلاد حرة لكانت عامرة بذلك.

وتطرق الحديث مرة أخرى مع الرفاق من أهل البلاد إلى مياه النهر الثرة بل العظيمة فقال المفتي: الماء هنا حلو، لكنه غير صحي للشرب لأن مياه الصرف الزراعي التي تجرف معها السماد والمبيدات الحشرية كلها تذهب إليه، وكذلك المصانع تلقي إليه بنفاياتها.

فسألته عن الماء الذي يدخل إلى البيوت فذكر أنه من ماءُ النهر ولكنهم يعالجونه حتى يقل ضرره إلا أن ذلك لا يصل به إلى أن يكون ماء صحياً. فنحن نشربه ونستعمله لأننا لا نجد غيره.

وعن الآبار في البيوت قال: إن العادة لم تجر على حفر آبار في البيوت.

ثم ختمنا هذه الجولة في النزول مع مرسى قريب من الفندق ولكنه ليس المرسى الذي يقابله اخترنا ذلك لكي نتمشى فترة على ضفاف النهر، فرأينا الناس قد خرجوا بأعداد كبيرة إلى ضفاف النهر في هذا الأصيل الذي أدبرت شمسه وزال نحسه، كما يقول الأدباء الأقدمون فكانوا أزواجاً أزواجاً وأفواجاً أفواجاً، ومن لم يكن كذلك رأيت طبعه مهتاجاً، يبحث بعينيه لمن يكون مثله محتاجاً إلى رفيق أو صديق.



على ضفة النهر أو الفرع الصغير في داخل استراخان

وكان العَشاء في هذا العِشاء في مطعم الفندق على الوجبة التي تعودنا عليها فيه وهي السمك الذي يقلى بزيت عباد الشمس، ومعه سلطة خضراء وبطاطس مسلوق وخبز جيد والشراب من الكوكا كولا حيث لم نجد عندهم شراباً مباحاً غيره.

ومن المخجل أن خادمة الفندق التي عرفناها وهي تتارية شابة من بنات المسلمين يعرف رفيقنا رحمة الله بن عناية الله لغتها، فيسألها عن الحلال والحرام من الطعام قد تغيبت اليوم وحلت محلها روسية غليظة في منتصف عمرها أو في نصفه غير الطيب كانت نشوى وهي تخدم الموائد

فكانت ترقص رغم أن جسمها الغليظ لا يساعدها على ذلك، وإذا كان الإنتشاء يبيح لها أن تفعل ما تشاء فإنه لا يفرض استساغة ذلك من الحاضرين الناظرين.

وكان ثمن وجبة العشاء ٢٢ ألف روبل أي ما يعادل خمسة دولارات أمريكية للشخص الواحد.

يوم الإثنين: ١٩/ ٢/ ١٤١٦هـ. ١٧/ ٧/ ١٩٩٥م.

مغادرة استراخان:

غادرنا فندقنا الفولغاوي المسمى (لوتوس) في الخامسة صباحاً على سيارة الأخ (مولود علي) جزاه الله خيراً، فسرنا في شوارع المدينة التي كانت خالية إلا من الكلاب الضالة ومن عجوز تسير وكأنها لا تقصد هدفاً معيناً، ومن شيخ هرم، وحتى السيارات لم نر إلا سيارتين إحداهما سيارة وقود، والأخرى سيارة ركوب معتادة وذلك عندما ذهبنا إلى بيت المفتي حيث وجدنا معه سيارة أخرى يقودها أحد الإخوة المسلمين.

ويقع بيت المفتي في إحدى العمارات الشيوعية وهي الأبنية المتعددة الطوابق التي تتألف من شقق سكنية وكل ما فيها يحتاج إلى ترميم ولكنها متروكة بدون ذلك لأنه لا أحد من الحكومة أو الشعب يستطيع ترميمها في الوقت الحاضر كما قالوا لنا في هذه المدينة وقبلها في مدن أخرى من المدن الروسية.

وصلنا المطار بسرعة لأنه قريب من المدينة وعند مكتب الترحيل ذكروا أننا معنا ١٧ كيلوغرام زائدة عن الوزن المسموح به لأمثالنا مع أنهم في مطار سمارا ذكروا أن الزائد في الأمتعة عندنا هو عشرة كيلوات وأخذوا مقابلها وفي المطارات التي قبلها لم يأخذوا منا أي شيء ولم يذكروا شيئاً عن زيادة في الأمتعة، وقد عرفنا أن البلاد في هذه المرحلة تشهد انفلاتاً إدارياً لذا فإن موظفي المطار بل والمرافق الأخرى يتصيدون الأجانب

وحتى بعض المواطنين فيطلبون منهم نقوداً لقاء أشياء لا تدفع عنها نقود ويأخذونها لأنفسهم يتقاسمونها بينهم فينال الكبير والصغير منها ما ينال.

أما الركاب فإنهم من الروس الذين لا يخفى ثقلهم الروحي والمادي على أحد، ومن المواطنين التتار الذين هم من أبناء المسلمين، بعضهم يضع على رأسه قلنسوة، علامة على أنه من المسلمين. وهي قلنسوة تقليدية تشبه القلنسوة البخارية التي تستعمل في بلاد التركستان، غير أن هذه التتارية تكون مستديرة لا تربيع فيها بخلاف التركستانية، ويغلب اللون الأزرق على القلانس (الطواقي) التتارية.

وغرفة المغادرة التي يخرج منها إلى ساحة المطار هي أشبه بالزنزانة الضيقة، فليس فيها كراس، لأنها لا تتسع لذلك وقد وقف فيها الركاب وهم يدخنون فيها رغم لافتة واضحة فيها تقول: (التدخين ممنوع) وقد أريتها أحد الذين كانوا يدخنون فلم يبال بكلامي.

وقد انحشر الركاب الذين يزيد عددهم على مائة في هذه الغرفة التي لا تزيد مساحتها على مترين في ثلاثة أمتار على أكثر تقدير.

وزاد الأمر سوءاً أن مسؤولي المطار أخروا خروج الركّاب إلى الطائرة فزاد بلاؤنا بهم.

وكان معنا حتى الطائرة ثلاثة من المودعين هم المفتي الشيخ ناظم بيك والأخ مولود بن علي وشخص ثالث. وكان بعض الركاب تنبعث منهم رائحة الثوم الذي لا شك في أنهم تناولوه مع طعام الإفطار فاجتمع مع رائحة الدخان مما كاد يخنقني بالرائحة الخبيثة ووضعت منديلاً على أنفي ولكنه لم يكف، ثم جاء الفرج بالخروج إلى حافلة المطار وقد امتلأت بالركاب حتى لم يجد المتأخرون فيها موطئاً لأقدامهم وذكرت زحام الحافلات المصرية السيئة الذكر في زمن الحكم الناصري.

وقد طلبت من المفتي ورفيقيه أن يبقيا هنا فأصروا على الخروج حتى الطائرة وقد حصلوا على إذن من إدارة المطار لمكانة المفتي عندهم.

ولم يتركني المفتي جزاه الله خيراً حتى جلست في مقعدي في الطائرة فودعني ثم عاد ومعه إحدى المضيفات من المسلمات فعرفها بي وأوصاها بما قد أحتاج إليه أثناء الطيران وبخاصة الطعام الحلال. وما رأيت هنا مثل الزحام على صعود سلم الطائرة لأن المقاعد غير مرقمة، ولكنني اخترت مكاناً في مقدمة الطائرة عند النافذة لأن الطائرات النفاثة أولها خير من آخرها، خلاف الطائرة المروحية التي تكون الصفوف في آخرها خيراً من الصفوف من أولها.

ولاحظت كثرة البعوض في الطائرة فقد ألهب ساقيَّ وقتلت أربعاً منها على زجاج النافذة لأنها كانت تتطلب الخروج منه بزعمها (البعوضي). ولم نجد مثل هذا البعوض في الفندق وربما كان ذلك بسبب وجود النافذة السلكية فيه.

والطائرة روسية نفاثة أظنها من طراز توبوليف ١٣٤ ومع ذلك كانت مقاعدها متقاربة إلى درجة أنه يصعب على المرء أن يمد رجليه مرتاحاً وبخاصة إذا كان يحمل حقيبة يدوية أسفل المقعد، وقد شعرت بالضيق الشديد رغم أن تذكرتي كانت بالدرجة الأولى لأن موظف الخطوط السعودية لم ينتبه إلى عدم وجود درجة أولى في هذا الخط، بل كل الطائرة درجة سياحية، ولم يختموا التذاكر أو يعطونا ما يثبت أنهم أركبونا في السياحية، وهذا دليل آخر على الفوضى الإدارية التي يتخبطون فيها.

من استراخان إلى موسكو:

غادرت الطائرة مطار استراخان في السادسة و٢٥ دقيقة صباحاً، متأخرة ٥ دقائق عن الموعد المحدد في الأصل لقيامها، وقد امتلأت جميع مقاعدها بالركاب.

وحالما ارتفعت في الجو بدا المنظر الغريب لشعب نهر الفولغا وفروعه، والأماكن التي تقع بين تلك الشعب والمستنقعات الكثيرة التي بعضها قد ركبها طحلب أخضر مما يدل على تغيرها.

ثم تجاوزت الطائرة مستنقعات الفولغا ومياهه الضخمة إلى منطقة بدت من الطائرة صحراوية أو شبيهة بالصحراوية، حتى منظرها رمادي أغبر.

ثم ارتفعت الطائرة وأخذت نهاية تحليقها فركدت في الجو ركوداً عجيباً في هدوء غريب قل أن يوجد له مثيل في طائرات البلدان الأخرى، وهو شيء عرفته من الطائرات النفاثة الروسية وأنها تكون في طيرانها هادئة حتى لا تكاد تحس لها بأدنى اهتزاز.

هذا وقد ران سحاب غير كثيف على الجو أسفل الطائرة إلا أنها مع الإرتفاع جعلني لا أتبين سطح الأرض حتى انجلى بعد فترة على أرض فيها زراعة حقلية وقد غادر الأراضي الصحراوية أو كاد والطائرة متجهة شمالاً إلى مدينة موسكو في طيران يستغرق بين استراخان وموسكو ساعتين وعشر دقائق.

وكلما أمعنت الطائرة جهة الشمال زادت مظاهر الزراعة وكثرت القرى الزراعية، وظهرت قطع من أشجار الغابات لا شك في أنها كانت هي الغالبة على هذه الأرض، ولكنهم قطعوها ليستغلوها في زراعة الحقول.

وليس في جيوب الطائرة أية أوراق أو جرائد أو صحف أو حتى مجلة الشركة ولا خارطة تبين مسار الطائرة.

وقد صحا الجو تماماً إلا أنه ليست هناك بيانات توضح المنطقة، التي نطير فيها والمدن التي سوف نمر بها أو بقربها.

في مطار موسكو:

تدنت الطائرة من عليائها وهي تتدلى فوق أراضٍ ذات حقول خضر، ثم كثرت الغابات حتى صارت هي القاعدة والإستثناء هي الأراضي الحقلية وتبين أن معظم الغابات تقع فوق الأراضي المرتفعة قليلاً أما الحقول فإنها في السهول ثم كثرت القرى.

وعندما ازداد قرب الطائرة من موسكو قلت الحقول، واتسعت الغابات، وكثرت القرى. وهذا ظاهر مما نعرفه من طبيعة الأرض في موسكو التي هي ليست أرضاً زراعية وإنما يزرع فيها البطاطس فلا يكون جيداً حتى إن قيمته تقل بأكثر من النصف عن قيمة البطاطس المستورد مما يوجد مثيله عندنا، وكنت سمعت من بعض سكان موسكو قبل ذلك أن بطاطس موسكو لا بد من غليه، ثم إراقة الماء الذي يغسل به.

وهبطت الطائرة في موسكو في الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والثلاثين بعد طيران استغرق ساعتين وعشر دقائق.

وكان من أجمل ما في هذا المطار الذي لا يكاد يوجد فيه جميل أعشاب الربيع الخضر التي تحف بالمدارج وقد وشحتها زهور برية صفر.

ولا بد من تحديد مطار النزول في موسكو لأن لها خمسة مطارات وهذا المطار هو (داما ديدوا) وقد يقال له مطار الجنوب لأن الطائرات التي تتجه إلى الجنوب أو تأتي منه تنزل فيه وهو مطار مزدحم سيء المرافق، قديم في كل شيء.

عندما دخلنا إلى مبنى المطار رأينا أفواج مستقبلي الركاب قد سدوا الطريق لأن الرحلة داخلية مثل أكثر الرحلات التي تستعمل هذا المطار. وفوجئت بسوء تصرفهم، وقلة أدبهم مما جعلني أنطق بهذا الوصف الذي كنت قطعت به في مناسبات أخرى من قبل وهو أنهم أوباش.

ومع أن الرحلة داخلية لا يحتاج الحصول على الحقائب فيها إلى وقت طويل فقد لبثنا زمناً ننتظرها، وذهب الرفاق لتخليص الأمتعة مع الأخ (عمار البحر) وهو سوداني يعمل في هيئة الإغاثة الإسلامية في موسكو ويتعاون مع مكتب الرابطة فيها وقد جاء في استقبالنا مع سيارة المكتب.

ومن أقبح اللغات التي سمعتها من مكبرات الصوت في العالم صوت المذيعات في المطارات الروسية فهن خشنات في الكلام إلى درجة أنه يخيل إليك أنهن ينتهرن من يتحدثن إليهم. ولا غرو في ذلك، لأنهن

في الحديث المعتاد لا يعرفن المجاملة فضلاً عن الإبتسام أو اللطف في الكلام. واللغة الروسية في أسماعنا ليست من اللغات الجميلة، والنساء المتحدثات غالباً ما يكن من الثقيلات المسنات.

ولاحظنا أن الموظفة المسؤولة عن خروج أمتعة الركاب رأيتها تصرخ وهي تنادي أحدهم بصوت مرتفع فجاء ضابط مع جندي كلمت الضابط بما لا نعرفه فقلت للأخ عمار البحر وهو يجيد الروسية أرجو أن تستوضح الأمر، فلم يحتج إلى استيضاح إذ رأينا الضابط حضر إليه أيضاً جنديان واقتادا أحد الأوباش وهو سكران وقد جلس مع أمتعة الركاب، وأبى أن يخرج منها حتى حمله الجنود حملاً وإذا تأبى ضربوه، وقال لنا الأخ عمار البحر: إن الحكومة الروسية بدأت تتخذ إجراءات صارمة للمحافظة على الأمن والضرب بشدة على أيدي الأوباش والمتشردين والسكارى ومدمني المخدرات، وكذلك اللصوص الذين كانوا كثروا في الأماكن العامة.

هذا وقد غادرنا المطار ونحن على عجلة من أمرنا من أجل أن نعطي السفارة السعودية جوازاتنا لتكتب عليها إلى سفارتي جورجيا وأرمِينيا في موسكو من أجل الحصول على سمات دخول لنا إلى البلدين. وتبلغ المسافة من المطار إلى الفندق ٤٢ كيلومتراً.

ونزلنا في الفندق الذي اعتدنا على النزول فيه وهو فندق (كوزموس) وأجرة الغرفة الواحدة فيه هو (١٠٥) دولارات أمريكية، وهو نظيف وجيد ويستحق هذه الأجرة وليس فيه من العيب إلا أن العاهرات فيه لديهن جرأة حتى إنهن يطرقن غرف النزلاء في الليل. وهذا ما لم أر له مثيلاً في الرداءة في فنادق العالم، لأن الفنادق التي تحترم نفسها تبعد العاهرات عنها، محافظة على سمعتها، والفنادق الأخرى تبعدهن خوفاً على أمتعة النزلاء وعلى الفندق من السرقة إلا أنه يظهر أن عاهرات موسكو لهن علاقات مع العاملين في إدارات الفنادق مثل هذا الفندق.

وقد بعثنا الجوازات إلى السفارة مع الأخ عمار البحر وجلسنا في الفندق للراحة ولكتابة ما تقرأه الآن.

ثم قضينا يوم الثلاثاء رغماً عنا في موسكو من أجل سمات الدخول. وفي يوم الأربعاء غادرناها إلى تفليس عاصمة جورجيا. والحديث عن تفليس بخاصة وعن جورجيا عامة في كتاب «أرض العربية الضائعة: جورجيا».

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

١ ـ في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين، بيروت، دار الثقافة ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٢ ـ رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا، الرياض، دار العلوم ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٣ ـ مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين، الرياض، النادي الأدبي ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

٤ ـ جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي، الرياض، المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٥ ـ رحلة إلى سيلان، الرياض، جمعية الثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

٦ ـ صلة الحديث عن إفريقية، مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين، الرياض، دار العلوم ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٧ ـ مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين، بريدة، نادي القصيم الأدبي ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٨ ـ إطلالة على نهاية العالم الجنوبي، مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م.

٩ ـ زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية، الرياض، المؤلف ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

١٠ ـ شهر في غرب إفريقية، مشاهدات وأحاديث عن المسلمين، الرياض، المؤلف ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

١١ ـ في نيبال بلاد الجبال، رحلة وحديث في شؤون المسلمين، الرياض، مطابع الفرزدق ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٢ ـ رحلات في أمريكا الوسطى، الرياض، المطابع الأهلية للأوفست ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٣ ـ إلى أقصى الجنوب الأمريكي، رحلة في ا لأرجنتين وتشيلي، الرياض، المؤلف ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

١٤ ـ على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الإستوائية من البرازيل، نشره النادي الأدبي في أبها ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٥ ـ على قمم جبال الأنديز، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

١٦ ـ في غرب البرازيل، الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٧ ـ في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهار، طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

١٨ ـ بقية الحديث عن إفريقية، مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٢هـ.

١٩ ـ جولة في جزائر البحر الكاريبي، مطابع الرياض الأهلية للأوفست عام ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢٠ ـ جولة في جزائر جنوب المحيط الهادىء، مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢١ ـ داخل أسوار الصين (مجلدان)، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٢ ـ بلاد الداغستان، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٣هـ.

٢٣ ـ الرحلة الروسية، مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ.

٢٤ ـ مع المسلمين البولنديين، مطابع الفرزدق في الرياض عام ١٤١٣هـ.

٢٥ ـ جمهورية أذربيجان، طبع مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٦ ـ في أعماق الصين الشعبية، نشرته مجلة المنهل.

٢٧ ـ بين الأرغواي والباراغواي، مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

٢٨ ـ بورما الخبر والعيان، طبع بيروت عام ١٤١٢هـ.

٢٩ ـ مقال عن بلاد البنغال، طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٠ ـ ذكريات من يوغسلافيا، مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣١ ـ كنت في بلغاريا، مطابع الفرزدق عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

٣٢ ـ في جنوب الصين، طبع رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.

٣٣ ـ كنت في ألبانيا، مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤١٤هـ.

٣٤ ـ ذكرياتي في إفريقية، محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.

٣٥ ـ أيام في النيجر، طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

٣٦ ـ على أرض القهوة البرازيلية، مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٥هـ.

٣٧ ـ نظرة في شرق أوروبا وحالة المسلمين بعد الشيوعية، طبع بيروت عام ١٤١٤هـ.

٣٨ ـ بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري، مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

٣٩ ـ من أنقولا إلى الرأس الأخضر، مطابع الفرزدق بالرياض عام ١٤١٤هـ.

٤٠ ـ سياحة في كشمير، مطابع الفرزدق عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤١ ـ يوميات آسيا الوسطى، مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٤هـ.

٤٢ ـ نظرة في وسط إفريقية، مطابع الفرزدق عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٤٣ ـ بلاد القرم، نشرته دار القبلة في جدة.

٤٤ ـ قصة سفر في نيجيريا (مجلدان)، مطابع الفرزدق التجارية في الرياض.

٤٥ ـ حديث قازاقستان، نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

٤٦ ـ المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية، نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

٤٧ ـ في جنوب الهند من سلسلة الرحلات الهندية، طبع في مطابع الفرزدق التجارية في الرياض عام ١٤١٧هـ.

٤٨ ـ رحلات في أمريكا الجنوبية: غيانا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٤٩ ـ إطلالة على أستراليا، طبع في مطابع التقنية للأوفست، الرياض عام ١٤١٧هـ.

٥٠ ـ أيام في فيتنام، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

٥١ ـ في غرب الهند، من سلسلة الرحلات الهندية، نشرته رابطة العالم الإسلامي عام ١٤١٧هـ.

٥٢ ـ إطلالة على موريتانيا، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

٥٣ ـ حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية، نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٤ ـ زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٥٥ ـ سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور، مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.

٥٦ ـ راجستان: بلاد الملوك من سلسلة الرحلات الهندية، مطابع الفرزدق ا لتجارية بالرياض عام ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٥٧ ـ في شرق الهند، من سلسلة الرحلات الهندية، طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٥٨ ـ العودة إلى الصين، من سلسلة الرحلات الصينية، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

٥٩ ـ في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية، طبع في مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

٦٠ ـ هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز)، مطابع التقنية في الرياض، عام ١٤١٩هـ.

٦١ ـ من بلاد القرشاي إلى بلاد القبرداي، من سلسلة الرحلات القوقازية، طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض، عام ١٤٢٠هـ.

٦٢ ـ بلاد التتار والبلغار، من سلسلة رحلات الشمال، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٣ ـ بلاد الشركس: الإديغي، طبع مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٤ ـ مواطن إسلامية ضائعة، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٥ ـ تائه في تاهيتي، طبعته مطابع التقنية بالرياض عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

٦٦ ـ إقليما سمارا وأستراخان، من سلسلة الرحلات في جنوب إفريقية.

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

٦٧ ـ معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات)، نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست بالرياض عام ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

٦٨ ـ أخبار أبي العيناء اليمامي، طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

٦٩ ـ الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبد العزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

٧٠ ـ كتاب الثقلاء، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٧١ ـ نفحات من السكينة القرآنية، طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس، نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٣هـ.

٧٢ ـ مأثورات شعبية، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٧٣ ـ سوانح أدبية، طبع مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

٧٤ ـ صور ثقيلة، مطابع الفرزدق التجارية بالرياض عام ١٤٠٥هـ.

٧٥ ـ العالم الإسلامي والرابطة، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها عام ١٤١٤هـ.

٧٦ ـ نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٧ ـ المقامات الصحراوية، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٧٨ ـ مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة، بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية، نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي في الرياض ١٤١٩هـ.

٧٩ ـ كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، ونشرته جامعة أم القرى في مكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ.

٨٠ ـ المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة)، ونشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة.

٨١ ـ مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبد العزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

٨٢ ـ رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة عام ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

المحتويات

المقدمة ٥

إقليم سمارا ٩

في مطار سمارا ١٤

من المطار إلى مدينة سمارا ٢١

دار الفتوى ٢٨

بيت المفتي ٢٩

جمعة سمارا ٣٢

وفد الرابطة ٣٦

تاريخ المسجد ٤٠

حديث المسلمين في الإقليم ٤١

إلى المسجد العظيم ٤٤

جولة في مدينة سمارا ٤٩

ميدان الثورة ٥١

إلى نهر الفولغا ٥٢

نهر سمارا ٥٣

شجرة العصير ٥٦

شارع الشاطىء ٥٦

مخبأ ستالين : ٥٨

ميدان جابايف ٥٩

مبنى الحكومة المحلية ٦٠
شارع لينين ٦١
سوق إفريقي في أوروبا ٦٣
مغادرة سمارا ٦٩
قطعة العذاب ٧١
فقر وعبوس ٧٣
إقليم أستراخان ٧٩
المدن التي زارها وفد الرابطة ٨٠
قرية فالونكا ٨١
قرية كلنجي ٨٢
تاريخ أستراخان ٨٢
تعليق ٩٣
من سمارا إلى أستراخان ٩٧
فوق منطقة أستراخان ٩٩
مطار أستراخان ١٠١
مدينة أستراخان ١٠٢
إلى قرية فالنكا ١٠٨
ريف أستراخان ١١٢
نهر كلبخي ١١٣
مسجد كلنجي ١١٨
المسلمون في كلنجي ١١٩
العودة إلى أستراخان ١٢٣
جولة في مدينة أستراخان ١٢٦
إلى الكرملين ١٢٨
عدد المساجد في أستراخان ١٣٢
ميدان ماركس ١٣٤

أطول جسر في أوروبا ١٣٦
مسجد الوهابية ١٣٧
الصلاة على الجنازة ١٤١
الغداء العجيب ١٤٤
مخاطبة المسلمين ١٤٦
جولة على مساجد أستراخان ١٥٠
مسجد التتار ١٥١
مسجد كري وش ١٥٤
أول مسجد ١٥٦
توزيع المساعدات ١٥٧
نزهة على نهر الفولغا ١٥٨
نزهة ممتعة ١٦٤
أين المقاهي والمطاعم ١٦٧
مغادرة أستراخان ١٧٠
من أستراخان إلى موسكو ١٧٢
في مطار موسكو ١٧٣
كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف ١٧٧
مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات ١٨٢